لغز أبو طرطور



محمود سالم

لغز أبو طرطور

تأليف
محمود سالم



لغز أبو طرطور

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٧٩ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

المغامرون الخمسة

من هم المغامرون الخمسة؟ إنهم أصدقاؤك الذين يتدخلون لحلِّ الألغاز، والإيقاع باللصوص، وإنقاذ المظلومين.

وهم في مثل سنك تقريبًا؛ «محب» وأخته «نوسة» و«عاطف» وأخته «لوزة». وقد كان هؤلاء الأربعة يقومون بالعمل معًا، ثم انضم إليهم «توفيق»، وهو أكبر منهم قليلًا. وقد أطلقوا عليه لقب «تختخ» لأنه سمين.

و«تختخ» ولد ذكي وقد أصبح رئيسًا للمغامرين الخمسة، وهو عقلهم المفكر، وبطلهم الشجاع. ويبقى أن نُقدِّم لك «زنجر» الكلب الأسود الذكي.

هؤلاء هم المغامرون الخمسة وكلبهم «زنجر» أبطال الألغاز التي تحبها.

«محمود»

بداية رحلة

كان «زنجر» ينظر أمامه في ضيق شديد، وقد تدلَّى لسانه خارجًا من فمه، وأخذ يلهث وهو يشعر بالعطش ... ولم يكن أمام «زنجر» شيء يتفرَّج عليه إلا مساحات واسعة شاسعة من اللون الأصفر ... فقد كان يقطع الصَّحْراء الغربية راكبًا سيارة «جيب» مع المغامرين الخمسة، والشمس الحامية تصبُّ على الصحراء شُواظًا من نار، والريح ساكنة، ولا صوت يتردَّد في الفضاء الواسع إلا صوت «موتور» السيارة وهي تشقُّ طريقَها بصعوبة على الطرق غير الممهدة.

وبجوار «زنجر» جلست «لوزة» وبعدها «نوسة»، وفي مقابلهم جلس «تختخ» و«محب» و«عاطف» ... وكانوا جميعًا في تلك اللحظة يفكِّرون في الشيء نفسه ... هذه الرحلة إلى العالم المجهول ... عالم «أبو طرطور».

ما الذي دفعهم إلى هذه الرحلة الشاقة، في هذه الصحراء الموحشة، في هذا الجو الحار ... في طريقهم إلى «أبو طرطور» بعيدًا عن «القاهرة» بنحو ٨٠٠ كيلومتر؟!

كان السبب دعوة غير جادة من المهندس «نبيه» عم «تختخ»؛ فقد كان في زيارتهم، وأخذ يتحدَّث عن «أبو طرطور» كأنه يتحدَّث عن عالم مسحور مليء بالأسرار ... وقال المهندس «نبيه»: دعك من مغامرات المدينة وما فيها من سيارات وعمارات وعصابات، وجرِّبْ مرةً أن تدخل الصحراء بعالمها المثير، وغموضها وأسرارها.

كان المهندس «نبيه» يضحك ويسخر ... ولم يظنَّ لحظةً واحدةً أن «تختخ» سوف يقبل هذا التحدي ويصحبه في هذه الرحلة ... ولكن «تختخ» قال في هدوء: إنني على استعداد إذا سمحت لي باصطحاب بقية أصدقائي ... وأظنهم جميعًا سيسعدون بهذه الرحلة.

كانت مشكلة «تختخ» أن يحصل على موافقة أسرة «محب» و«نوسة»، وأسرة «عاطف» و«لوزة» ... ولكن عندما تأكَّدت الأسرتان أنَّ الأولاد سيكونون في رعاية المهندس «نبيه»، وأنهم سيستفيدون من هذه الرحلة معلوماتٍ هامةً عن الحياة في الصحراء والمناجم التي بها، وافقتِ الأسرتان على الرحلة ... وعندما انتهت إجازة المهندس «نبيه» واستعدَّتِ القافلةُ للسفر ... كان الأصدقاء الخمسة ومعهم «زنجر» يركبون مع بقية أعضاء الرحلة سيارةً إلى «أسيوط» ... ومنها أخذوا طريقهم إلى «واحة الخارجة»، التي بدءوا رحلتهم إليها في الصباح الباكر ليقطعوا نحو ٢٠٠ كيلومتر في الصحراء بالسيارات.

نظر «تختخ» إلى ساعته، لقد مضت نحو ثلاث ساعات منذ خرجوا من «أسيوط» ... فإذا كانت السيارات تسير بسرعة نحو ٥٠ كيلومترًا في الساعة، فقد قطعوا ثلاثة أرباع الطريق، وبقيت نحو ساعة ويصلون إلى الواحة حيث يقضون الليل ... ثم يبدءون الجزء الخطير والمخيف من الرحلة إلى «أبو طرطور».

ولاحظت «لوزة» أن المهندس «نبيه» — الذي كان يجلس بجوار السائق — يدور برأسه ناحيتهم، ويشير مبتسمًا إلى ناحية اليسار. ومدَّت «لوزة» رأسها من السيارة ولفتت نظر الأصدقاء لما يشير إليه المهندس ... وكم كانت دهشتهم عندما شاهدوا بُحيرةً من الماء في قلب الصحراء.

أشارت «لوزة» إلى الأصدقاء قائلة: انظروا ... بحيرة من الماء في قلب الصحراء ... شيء مدهش!

قال «تختخ» مبتسمًا: لو ذهبنا إليها لما وجدنا شيئًا على الإطلاق.

لوزة: لا أفهم ... سنجد ماءً طبعًا!

تختخ: أبدًا ... إنها مجرد سراب!

لوزة: ما معنى سراب يا «تختخ»؟

تختخ: إنها ظاهرة طبيعية تظهر في الصحراء عندما ترتفع الشمس بزاوية معينة على الرمال فيبدو للناظر من بعيد أنه يرى بحيرةً من الماء ... والحقيقة أنه مجرد سراب. وقد خدَعَ هذا السرابُ الكثيرين من رُوَّاد الصحراء فساروا تجاهه، وكلما اقتربوا منه ابتعد ... وكثير منهم مات عطشًا.

ابتلع «عاطف» ريقه بحركة مسموعة، وقال: إنني على كل حال أكاد أموت عطشًا بدون سراب. ابتسم الأصدقاء، وقالت «نوسة»: في رحلات الصحراء لا يستطيع الفرد أن يشرب كما يشاء. فكمية الماء مقسمة على مواعيدَ محددةٍ، بحيث تكفي الرحلة حتى الوصول إلى المكان التالي الذي يوجد به الماء وهكذا!

عاطف: ومتى نصل إلى المكان التالي؟

تختخ: لقد كنت أفكِّر مثلك بالضبط ... ووجدت أن أمامنا نحو ساعة حتى نصل إلى «الواحة الخارجة» حيث نقضي الليلة، ثم نبدأ غدًا صباحًا رحلتَنا إلى «أبو طرطور». ولن نموت عطشًا طبعًا؛ فقد أكَّد العلماء أن الإنسان يستطيع أن يعيش نحوَ ثلاثةِ أيامٍ بدون ماء! وإذا ظلَّ ساكنًا بلا حركة فقد يعيش فترةً أطول.

وتحسَّس «عاطف» رقبته فضحك «محب» قائلًا: عندما تصل إلى «الواحة الخارجة» تستطيع أن تملأ بطنك بالماء مثل الجمل.

وعاد الصمت يلفُّ الصحراءَ عدا صوت السيارة وهي تقطع طريقها جاهدةً في اتِّجاه الواحة التي أخذوا يقتربون منها تدريجيًّا.

وفي العاشرة كانوا على مشارف الواحة ... وفتح الأصدقاء عيونَهم على مشهد الزرع في وسط محيط الرمال الأصفر ... كان منظرًا لا يُنسى ... النخيل وأشجار الزيتون ... وعيون المياه ... والجمال ... والسيدات المحجبات، كلها مشاهد لم تمرَّ بهم من قبل.

واتَّجهوا إلى استراحة الشركة، حيث اغتسلوا وشربوا الشاي العربي ... وتجدَّد نشاطُهم، واستأذنوا المهندس «نبيه» في جولة يقومون بها في الواحة الصغيرة فأَذِنَ لهم. فانطلقوا فرِحين إلى شوارع الواحة الضيقة، وبالإضافة إلى ما شاهدوه من معالم الحياة البدوية في الصحراء، تفرَّجوا على كثير من الآثار الفِرْعونية والرُّومانية في الواحة.

وعادوا ساعةَ الغداء وهم في غاية الجوع، فقال لهم المهندس «نبيه» ضاحكًا: لا تأكلوا كثيرًا.

عاطف: إنني ميت من الجوع ... وسألتَهِمُ كلَّ ما أجده.

نبيه: ذلك سيُفَوِّت عليك فرصةَ عشاءٍ شهي!

عاطف: أي عشاء؟

نبيه: لقد دعانا أحد أعيان الواحة إلى عشاء في الهواء الطلق، حيث يتم أمامكم شواءُ خروف.

صفَّقت «لوزة» قائلة: ذلك شيء مثير!

نبيه: ولذيذ أيضًا.

عاطف: مع هواء الصحراء، وتعب الرحلة أستطيع أن أتغدى جيدًا، وأن آكل الخروفَ أيضًا.

وبين الأحاديث والنكات تناولوا غداءً خفيفًا استعدادًا للعشاء. وبعد أن ارتاحوا فترةً من الوقت، حضر أحد رجال البدو، ودعاهم لاصطحابه خارج الواحة ...

كانت الشمس تغرب ... والقمر يصعد ... وبدا مشهد الصحراء جليلًا ومهيبًا، حتى إن «نوسة» أحسَّت برعدةٍ لا تدري سببها ... ثم مضَوْا سائرين حتى غادروا الواحة، ومضَوْا في طريقٍ كانت تحفُّ به بعض الآثار القديمة. ثم سمعوا صوتَ مزاميرَ يرتفع في اتجاه اليمين ... وعندما انتهى الطريق، شاهدوا خيمةً كبيرةً مفتوحةَ الجوانب مقامةً على مساحة كبيرة من الرمال التي فُرِشت بأنواع «الأكلمة» التي تصنعها الواحة ... وكانت هناك أكثر من نار مشتعلة، ورائحة الشواء تملأ الجو.

كان المنظرُ فريدًا لا يُنسى ... ووقف الأصدقاء لحظات ومعهم بقية رجال الرحلة يتفرجون في إعجاب، ثم اتَّجهوا إلى الخيمة الكبرى حيث كان بعض رجال البدو يشتركون في لُعبة السيف، وقد ارتفع صوت الطبول، والمزامير تحمي وطيس اللعبة التي تحوَّلت بالحماس إلى شبه معركة حقيقية.

وتمنَّى «محب» لو أنَّه أحضرَ آلةَ التصوير في هذه اللحظة ليُصوِّرَ هذا المشهد، ثم أقبل الشيخ الداعي فسلَّم عليهم، ودعاهم للجلوس بجواره أمام الخيمة حتى ينتهيَ الطعام.

هبطت الشمس تمامًا، وارتفع القمر ... وزاد لون النيران توهُّجًا واشتدَّ حماسُ اللاعبين، ومالت «لوزة» على «نوسة» قائلةً: شيء مثير جدًّا هذا العالم!

نوسة: فعلًا ... بعيد عن السيارات والقطارات ومغامرات المدينة.

لوزة: من يدري؟ لعل هناك لغزًا صحراويًّا في انتظارنا!

ابتسمت «نوسة» وردَّت: هل هناك ألغاز صحراوية أيضًا؟! إنكِ مدهشة يا «لوزة» في تفكيرك.

لوزة: إننا لم نشترك في ألغاز صحراوية!

نوسة: لغز واحد! وكانت مطاردة بيننا وبين خاطف الأميرة الصغيرة ... هل تذكرين؟

لوزة: طبعًا في لغز «وادي الذئاب»، ولكن لم يكن هناك لغزٌ صحراويٌّ بالمعنى الصحيح ... لقد كان جزءًا من مغامرة!

كان الأصدقاء الخمسة يجلسون بين عدد كبيرٍ من رجالِ البدو الأشدَّاء المسلحين بالخناجر والسيوف، ومعهم أفراد الرحلة من مهندسين وسائقين ... وكان المهندس «نبيه» يجلس بجوار الشيخ الذي دعاهم ... أما «زنجر» فقد جلس قرب النيران يبحلق في الخروف المشوي، وخياله ينطلق خلف عظمة ساخنة سيفوز بها حتمًا، وربما يكون أكثر من عظمة ... قطعة لحم مثلًا.

كان الحفلُ مستمرًّا والأصدقاء غاية في السعادة، عندما دخل شخص الخيمةَ، فنظر حوله ثم اتجه إلى المهندس «نبيه» وصافحه مسرعًا ثم مال عليه وأسرَّ في أذنه ببضع كلمات،

فقام المهندس، ولاحظ «تختخ» أنَّ على وجهه علاماتِ انزعاجٍ قوي ... وخرج «نبيه» ولم يعد بعد أن أرسل من يعتذر عن غيابه إلى الشيخ ...

وُضع لحم الخروف المشوي أمام المدعوِّين ... وكان عددُهم قد تناقص بعد أن قام عددٌ منهم ولحِقَ بالمهندس «نبيه» ... وأقبل الأصدقاء على الطعام بشهية إلا «تختخ» الذي كان يحسُّ أن الأمور لا تسير على ما يرام، وأن علاماتِ الانزعاج التي شاهدها على وجه عمِّه تعني أشياءَ غيرَ سارَّة.

انتهى العشاء ... وفاز «زنجر» بكمية من اللحم لم يحلم بها طول حياته، وعندما كان يسير خلف الأصدقاء في طريق عودتهم إلى الاستراحة تمنَّى أن يبقى في هذا المكان، حيث الخراف المشوية، مدى الحياة.

وبينما كان الأصدقاء يتبادلون الحديث حول هذه السهرة الرائعة، كان «تختخ» يسير مسرعًا ... فقد كان يريد أن يصل إلى عمه بأسرع ما يستطيع ليعرف ماذا حدث، ولماذا انصرف عمُّه بدون إكمال السهرة ... لم يكن يشكُّ لحظةً أن هناك أسبابًا قوية. فما هذه الأسباب؟ هل هي متعلِّقةٌ بالمغامرين مثلًا، أو بالعمل أو بشيء آخر؟!

ووصلوا الاستراحة ... وكم كانت دهشتُهم عندما لم يجدوا المهندس، ولا فريقَ الرجال الذين حضروا معهم من «القاهرة» ... ولا السيارات أيضًا ... لم تكن هناك سوى سيارة واحدة وسائق واحد، وكانت في انتظارهم مفاجأة محزنة ... لقد ترك لهم المهندس «نبيه» ورقةً موجَّهةً إلى «تختخ» وإليهم جميعًا طبعًا. أخذ «تختخ» يقرؤها على الأصدقاء:

ولدي العزيز «توفيق»

لأسبابٍ خطيرةٍ وخاصةٍ بالعمل اضطُررتُ إلى السفر فورًا إلى «أبو طرطور» ... فأرجو أن تستمتعوا بالسهرة. وستبقون في «الواحة الخارجة» ثلاثة أيام أخرى، فإذا لم تصلْكم مني رسالةٌ فعودوا إلى «القاهرة» ولا تنتظروا ... إني لا أعرف متى سأعود مرة أخرى ... فاتصل بمنزلي وأخبر زوجتي بدون أن تُثيرَ قلقَها وإلى اللقاء.

عمك

«نبيه»

سمع الأصدقاء الرسالة صامتين ... وعندما انتهى «تختخ» من قراءتها نظروا إليه، ولكن وجهه الهادئ لم يكن يحمل أيَّ تعبير!

قرار خطير

كان الأصدقاء يجلسون في الاستراحة ومعهم «زنجر»، وكان «تختخ» يمسك بالورقة في يده، وقد بدت عليه علامات الانشغال والتفكير ... ومضت فترة ثم قال «تختخ»: ما رأيكم؟

ردَّت «نوسة»: لا أعتقد أنَّ هناك أيَّ رأي. لقد طلب منَّا المهندس «نبيه» أن نعودَ بعد ثلاثة أيام إلى القاهرة ... ولا بُدَّ أن نعود!

لوزة: رأيي ألا نعود ... سننتظر حتى تصلنا منه رسالة.

محب: وهل لنا رأي في هذا الموضوع؟! إن المطلوب ليس رأينا، ولكن رأيك أنت يا «تختخ»، فهو عمك وأنت أدرى به.

نظر «تختخ» إلى «عاطف»، فقال «عاطف»: رأيي إذا كانت هناك حفلة كل ليلة مثل هذه الحفلة فيجب أن نبقى شهرًا!

لم يضحك أحد طبعًا، ولا حتى ابتسم، إلا «زنجر» الذي هزَّ ذيله علامة الموافقة على البقاء ... كأنما فهِمَ ما قاله «عاطف».

لم يتحدث «تختخ» ولكن استدعى فرَّاش الاستراحة وسأله: هل قرأ أحد هذه الرسالة غيري؟

ردَّ الفرَّاش: لا يا أستاذ ... لقد طلب مني المهندس «نبيه» أن أسلِّمَها لك أنت شخصيًّا، فلم يرَها أحد إلا أنت.

تختخ: ومَن بقيَ من مجموعة الرجال الذين كانوا معنا؟

الفرَّاش: لا أحد سوى السائق.

تختخ: وهل تعرف أنت ما في هذه الرسالة؟

الفرَّاش: لا ... إنني لا أعرف القراءة!

وصرف «تختخ» الفرَّاش، ثم التفت إلى الأصدقاء قائلًا: إن قراري فيه كثير من المخاطر ... لهذا ليس من المطلوب منكم أن تتفقوا معي فيه، بل إني أقترح أن تعودوا جميعًا إلى «القاهرة»!

أسرعت «لوزة» تقول: وأنت؟

تختخ: أنا سوف أتجه إلى «أبو طرطور»!

لوزة: وأنا معك!

نوسة: وأنا!

عاطف: وأنا!

محب: وأنا أيضًا!

ساد الصمتُ لحظاتٍ، ثم قال «تختخ»: إن تعليمات عمي أن ننتظر ثلاثةَ أيام ثم نتَّجه إلى «القاهرة» إذا لم تصلْنا منه رسالة ... ورأيي أن نتَّجه غدًا صباحًا إلى «أبو طرطور» ... فمن الواضح أن هناك مشكلةً خطيرةً تواجه عمي، وأعتقد أننا نستطيع المساهمة في حلِّ هذه المشكلة.

لوزة: ولماذا ننتظر حتى الصباح ... لماذا لا نسافر الآن؟

تختخ: لنسأل السائق.

وأسرع «عاطف» باستدعاء السائق فقال له «تختخ»: لقد ترك لنا عمي رسالةً وغادر الواحة إلى «أبو طرطور» ... هل تعرف ما في الرسالة يا عم «بركات»؟

ردَّ السائق: لا يا أستاذ!

قال «تختخ»: إن الرسالة فيها تعليمات من عمي أن نبقى هنا ثلاثة أيام ثم نتجه بعد ذلك إلى «أبو طرطور»، ولكننا قررنا أن نسافر الآن، فما رأيك؟

السائق: لا أستطيع يا أستاذ. لقد هبط الليل، ونحن نسير خلف آثار السيارات التي سبقتنا إلى «أبو طرطور» ... فليس هناك طريق ممهد، ولكنها مدقَّات في الصحراء!

تختخ: إن القمر ساطع.

السائق: ضوء القمر لا يكفي!

تختخ: وكيف سافر عمي مع بقية البعثة؟

السائق: إن معهم خرائط، ومعهم دليل من البدو.

تختخ: هل نستطيع السفر صباحًا؟

السائق: ممكن طبعًا، وإن كان في ذلك مخاطرة ... فعادة نقطع هذه المسافة في شكل قافلة حتى إذا تعطَّلت إحدى السيارات ساعدتها السيارات الأخرى ... كذلك هناك خرائط للطريق ودليل يعرف المنطقة.

تختخ: دعك من المخاطر، سنبدأ رحلتنا في الصباح الباكر ... السادسة تمامًا ... فكن مستعدًّا في ذلك الوقت.

السائق: سأقوم الآن بشحن السيارة بالماء، وملء خزَّانها بالبنزين، وسأكون مستعدًّا في السادسة.

تختخ: شكرًا لك!

وعندما انصرف عم «بركات»، قال «محب»: هل عندك تصوُّر لنوع المشكلة التي يعاني منها عمك المهندس «نبيه» يا «تختخ»؟

تختخ: لا ... ولكنني أرجِّح أنها مشكلة خاصة بالعمل. وما دمنا قد قطعنا الجزء الأكبر من الرحلة، «القاهرة–أسيوط» و«أسيوط–الواحات»، ولم يبقَ سوى خمسة وستين كيلومترًا ونصل إلى «أبو طرطور»، فلا بأس من الذَّهاب ما دام هذا كان هدفَنا الأصلي. وفي الوقت نفسه سنقوم بما لنا من روح المغامرة بالاشتراك مع عمي في حل المشكلة، إذا كانت من النوع الذي نعرف كيف نحله!

نوسة: ولكن يا «تختخ»، لو أنَّ عمك كان يتصوَّر أنَّ لنا أيةَ فائدة فلماذا لم يأخذنا معه؟

تختخ: إن الكبار عادة ينظرون إلينا على أننا أطفال يجب أن نبتعدَ عن مشاكلهم، ولكني أعتقد أنَّ لنا خبرة لا تقل عن خبرة الكبار في حلِّ المشاكل ... ثم إن هناك مسألة أخرى ... إني أحب عمي «نبيه» جدًّا، ولا أتصوَّر أن يكون في مشكلة ولا أتدخَّل فيها.

محب: عندي اقتراح ... لماذا لا نطلب من الشيخ أن يعطيَنا دليلًا ليرشدنا في الطريق؟

تختخ: إنه اقتراح معقول، فاذهب أنت لمقابلته.

وأسرع «محب» للقاء الشيخ، وجلس الأصدقاء ينتظرونه. ثم نامت «لوزة» وتبِعَتها «نوسة»، وبقيَ «تختخ» و«عاطف» في انتظار عودة «محب»، وأخذا يتجادلان في نوع المشكلة التي وقع فيها المهندس «نبيه».

وحضر «محب» ولم تكن ملامحُ وجهه تبشِّر بالخير ... وقال: لقد قابلت الشيخ واعتذر بأنَّ عدد الأدلاء قليل ... فلم يذهب هناك مع بعثة المهندسين إلا ثلاثة ... منهم واحد موجود في «أبو طرطور»، وواحد مع المهندس «نبيه» ... أمَّا الثالث فقد سافر إلى أسيوط ولن يعود قبل يومين.

ران الصمت على الأصدقاء الثلاثة فترة، ثم قال «محب»: في رأيي أن نذهبَ بلا دليل. ما دامت هناك آثار يمكن أن تدلَّنا على الطريق.

تختخ: هذا هو رأيي أيضًا، برغم ما في ذلك من مخاطرة شديدة!

محب: إن المسافة ليست كبيرةً جدًّا. خمسة وستون كيلومترًا. كيف نتوه فيها ومعنا السائق الذي قطع هذه المسافة من قبل؟

تختخ: هيا ننام ... حتى نستيقظَ في الموعد.

في السادسة صباحًا كانت السيارة تُقِلُّ الأصدقاءَ وتقطعُ طرق الواحة الساكنة متجهةً إلى الغرب ... وعندما وصلوا إلى خارج الواحة أشار عم «بركات» السائق إلى آثار واضحة في الرمال، وقال: هذا هو الطريق ... وإذا لم تهبَّ رياحٌ قويةٌ تزيل الآثار، فإن في استطاعتنا أن نصل إلى موقع بعثة المهندسين في حدود ساعتين.

وأعمل السائق يديه وقدميه في أجهزة السيارة فانطلقت على الطريق الرملي ... وقد جلس «تختخ» بجواره، وجلس بقية الأصدقاء في المقاعد الخلفية، ومعهم «زنجر»، وهو غير سعيد بهذه الرحلة الصحراوية التي لا يرى فيها سوى الرمال.

مضت نحو ساعة ... وبدأ الأصدقاء يحسون بالاطمئنان إلى أنهم سيصلون إلى «أبو طرطور»، بدون عقبات ... ولكن طُمأنينتهم أخذت تهتز مع هبوب رياح غربية خفيفة أخذت تحرِّك الرمال ... ولم تمضِ سوى ربع ساعة أخرى حتى تحوَّلت الرمال إلى عاصفة قادمة من الغرب كالإعصار ... وبدأت الرمال تنفُذ إلى السيارة، تلسع وجوهَ الأصدقاء، وتُضيق أنفاسَهم، وتُلهِب عيونَهم.

وبعد لحظات قال السائق: إنني لا أكاد أرى شيئًا أمامي ... ومن الأفضل أن نُوقفَ السيارة. ووقفت السيارة وسط العاصفة، والريح تزمجر، والرمال والحصى تدقُّ جوانبها في عنف، ونظر «تختخ» خلفه فوجد الأصدقاء قد التصقَ بعضُهم ببعض، بينما ألقى «زنجر» بنفسه في قاع السيارة وأخذ يلهث مدليًا لسانه.

سأل «تختخ» السائق وهو يمسح وجهه بمنديله: كم تستمر هذه العاصفة؟ ردَّ السائق في ضيق: لا أعرف فإنني لست خبيرًا بجو الصحراء ... وأيًّا كانت المدة التي ستستمر فيها، فإنني أعتقد أنها ستمحو آثار السيارات التي كنا نسير عليها، وسنصبح في موقف عصيب.

أحسَّ «تختخ» بالخوف يتسرب إلى قلبه، على نفسه وعلى الأصدقاء الذين ألقى بهم في هذه الصحراء القاحلة، وفي هذا الموقف الصعب حيث لا يمكنهم التقدُّمُ إلى الأمام أو العودة إلى الخلف.

والتقت عينا «تختخ» بعيني «لوزة» في ظلام السيارة الخفيف، وابتسما بدون كلمة واحدة ... فقد كان كلٌّ منهما يشجِّع الآخر.

استمرَّت العاصفة، والسيارة واقفة في مكانها ... والريح تعصف، والأصدقاء ساكتون ... واشتدت دهشة «تختخ»؛ لأن عم «بركات» استغرق في النوم وهو جالس إلى عجلة القيادة ... وأخذت عيون الأصدقاء وحلوقهم تلتهب ... وتغطَّوْا جميعًا باللون الأصفر ... وشعروا — بما فيهم «زنجر» — أنهم يغرقون في بحر الرمال وأمواج رياحه التي لا تنتهي.

وبعد نحو ساعتين بدأت الريح تخفُّ تدريجيًّا ... ثم صمتت الصحراء تمامًا ... وتحرَّك «تختخ» في مكانه، وأحسَّ أنه مدفون تحت طبقة كثيفة من الرمال، ولم يستطع «تختخ» فتح الباب ... واضطر الأصدقاء إلى الخروج من النافذة ... وأصيبوا بالفزع جميعًا عندما شاهدوا ما خلَّفته العاصفة ... لقد ردمت السيارة حتى منتصفها تقريبا بالرمال ... ولو استمرت فترة أخرى لدفنتها تمامًا.

وقف الأصدقاء حول السيارة ينظرون إليها في أسًى ... ثم يمدون البصر أمامهم وخلفهم فلا يجدون للآثار التي كانوا يسيرون عليها أية علامات ... ولم يتحدث أحد، ولكنهم فقط تبادلوا نظرات مرتعدة.

وبعد محاولات مُضْنية للخروج من النافذة، ظهر عم «بركات» ووقف بجواره ينفض ثيابه، ونظر إلى السيارة ثم قال ببساطة: إنها لن تتحرك مرة أخرى!

وأحسَّ «تختخ» لهذه الكلمات بوَقْعٍ في نفسه لم يشعر بمثله في حياته ... فهو أمام خطر رهيب هو والأصدقاء والسائق ... خطر لا قِبَلَ لهم بدفعه. ولكن «محب» — وهو أكثرهم اندفاعًا وجرأة — نظر إلى ساعته فجأة، وقال: هل سنقف هكذا طَوال النهار؟ إن الساعة ما زالت التاسعة، وفي إمكاننا أن نتحرك بالسيارة قبل أن يهبط الليل!

التفت عم «بركات» إليه قائلًا: وكيف نتحرك والسيارة مدفونة في الرمال؟

محب: سنزيل هذه الرمال فورًا ... هاتي يا «نوسة» الشاي.

وأسرعت «نوسة» لإحضار «ترمس» الشاي الساخن، وسرعان ما دارت أكواب الشاي على الجميع، على حين فاز «زنجر» بكمية من الطعام وبعض الماء ... وبعدها انتعش الجميع، وقال «محب» موجهًا كلامه لـ «بركات»: عليك أن تجرِّب الموتور ... وعلينا أن نُزيلَ الرمال.

وخلع الصبيان الثلاثة قمصانهم، وأحضروا بعض الأدوات من السيارة، ثم انهمكوا في إبعاد الرمال عن السيارة ... كانت الرمال ناعمة ... وقد أحاطت بالسيارة وكأنها أسمنت

مصبوب، ولكن عزيمة الأصدقاء الخمسة كانت أقوى من الأسمنت ... وأخذت أيديهم تعمل بسرعة برغم الشمس الحارقة التي صبَّت نيرانها عليهم ... وشيئًا فشيئًا بدأت الرمال تذوب حول السيارة، والعجلات تظهر ... وبعد فترة مُضْنية من العمل دارت أكواب الشاي مرة أخرى. وبعد فترة استراحة قصيرة عاد المغامرون يعملون ... وكان «زنجر» يجري بعيدًا عن السيارة يتشمَّمُ الأرضَ هنا وهناك ثم يعود ... وفجأة دوى في صمت الصحراء صوتُ «الموتور» وهو يكركر ... وظهر وجه عم «بركات» مبتسمًا وهو يقول: لقد دارت!

وعمَّ نوعٌ من الطُّمأنينة المجموعةَ الصغيرة ... ولكن فجأة قال «عاطف»: إذا أزلنا الرمال كلها ... ودارت السيارة ... فإلى أين نذهب وليس هناك طريق واضح نسير عليه؟

هبط السؤال كالقُنبلة ... فتبدَّدتِ الطُّمأنينة ... وساد صمتٌ عميق.

أبو طرطور

حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر كان العمل قد انتهى تمامًا، فأُزيلَت الرمال كلها … ووقفت السيارة مستعدةً للسير وقد دار «الموتور» … ولكن السؤال الذي لا إجابةَ عنه كان: إلى أين؟

والتفت «تختخ» إلى عم «بركات» وقال: ما هي كمية البنزين التي معك؟ قال «بركات»: معي الكثير … ففي خزان السيارة نحو الصفيحتَين، وعندنا كمية مماثلة في خزان خاص للطوارئ، وهذه كمية تكفي للسير نحو خمسمائة كيلومتر!

تختخ: إذن سنستمر إلى الأمام في اتجاه الغرب … إن المسافة الباقية لا تزيد على ثلاثين كيلومترًا … فلماذا لا نحاول السير أطول مدة ممكنة قبل نفاد البنزين؟ وما دامت فرصتنا في العودة تساوي فرصتنا في التقدم، فلنتقدم.

وعادوا جميعًا إلى السيارة، وبدأت السير، جعلوا الشمس أمامهم واتجهوا نحو قرصها الذي كان يميل إلى الغروب … كانت الرمال تُغطِّي وجوههم وثيابهم، وكانوا غاية في الإرهاق … ثم كان هناك خطر في ألَّا يصلوا إلى شيء على الإطلاق في هذه الصحراء الواسعة التي تعتبر — بامتدادها الكبير حتى ساحل المحيط «الأطلسي» — أكبرَ صحراء في العالم.

ومع ذلك كان في قلبهم الحماس للمغامرة … فهم معًا … والسيارة جديدة وبها بنزين، فلا بأس من مغامرة إذن …

ومضت السيارة، ووِجْهتُها قرصُ الشمس الساقط إلى الغرب … وقال «تختخ» موجِّهًا الحديثَ إلى السائق «بركات»: إن أمامنا سلسلةً من الجبال … فأين هو «أبو طرطور»؟

قال «بركات»: إن «أبو طرطور» مختفٍ تمامًا … لقد أحاطته الطبيعة بسلسلة من الجبال تُخفيه … وهكذا ظلَّ مجهولًا عن العالم طَوال أُلوف السنين، بل ملايين السنين كما سمعتُ من المهندسين!

نظر «تختخ» أمامه يتأمَّل سلسلةَ الجبال ... وفكَّر أنها أوَّل مغامرة يذهبون فيها إلى مثل هذا المكان البكر ... مكان لم تطأه قدمُ إنسانٍ منذ ملايين السنين ... شيء مثير ... هكذا قال «تختخ» لنفسه ... والسيارة تمضي لا يُسمع في الصمت الثقيل الهابط على الصحراء سوى صوتِ محرِّكها الهادئ.

ومضت ساعة وهم يتَّجهون إلى سلسلة الجبال بدون أن يرَوْا أيَّةَ علاماتٍ للحياة أمامهم ... وبدأ القلق يتسرَّب إلى نفوسهم. وعندما مضت ساعة أخرى وهم يَمضُون من طريق إلى طريق حسبما يرى «بركات»، بدأ الأصدقاء يميلون برءوسهم ويهمسون ... وفجأة ... ولأول مرة منذ بدءوا رحلتهم المجهولة ... رفع «زنجر» رأسه إلى فوق وأخذ يتشمَّم الجو ... ثم أطلقَ نُباحًا طويلًا ممطوطًا. والتفت إليه «تختخ»، ومرة أخرى أطلق «زنجر» نُباحه ثم حاول القفز من السيارة، فقال «تختخ»: أوقف السيارة!

وتوقَّفت السيارة ... ولم ينتظر «زنجر»؛ فقد قفز فورًا إلى الرمال ثم دار حول السيارة يتشمَّم الجو ... وانطلق يجري ... وصاح «تختخ» ب «بركات»: اتبعه! ودار المحرِّك ... وانطلقت السيارة تتبع «زنجر» في طريقٍ متعرِّجٍ حافلٍ بالمنخفضات والمرتفعات ... وفجأة صاح «تختخ» في فرح غامر: هناك ... هناك! وأشار إلى مجموعة بعيدة من السيارات كانت تقف عند سفح أحد الجبال ... وزاط الأصدقاء وارتفعت أصواتهم ... لقد أدرك «زنجر» أنهم تائهون وأنهم يبحثون عن المعسكر ... واستطاع تنسُّمَ رائحةِ الحياة.

كان ظهورُ الأصدقاءِ مفاجأةً للمهندس «نبيه» ومن معه من المهندسين والسائقين والعمال. وقد غضب المهندس في البداية، ولكنه نسِيَ كلَّ شيء بعد لحظات وعاد إلى العمل، وكان واضحًا أنه مشغول بمشكلة هامة ... وكان هذا هو سبب إصرار «تختخ» أن يقابله فورًا.

كان المعسكر مُكوَّنًا من مجموعة من السيارات، كل واحدة منها تجرُّ مقطورةً مجهَّزةً للسكن، وهي تشبه غُرَفًا متحركةً على عجل، وبعض هذه المقطورات كان معامل أبحاث حيث كان المهندسون يعملون في تحليل العينات التي تُستخرج من الجبل، وبعضها كان مطابخ ... وبعضها غُرف نوم ... وكان كل شيء يدور بالكهرباء من مولد كبير ... وكان البدو يعيشون في خيامهم كالمعتاد.

واتجه «تختخ» إلى مقطورة المهندس «نبيه» الذي كان يجلس وأمامه مجموعة من الخرائط لمنطقة العمل ... كان مُنكبًّا عليها يعمل وقد بدا عليه الإرهاق ... وعندما دخل «تختخ» رفع المهندس «نبيه» رأسه إليه، وقال: لولا حسن حظكم لاختفيتم إلى الأبد في الصحراء ... إن «زنجر» في الحقيقة أنقذ حياتكم ...

قال «تختخ»: لقد أصررنا على الحضور لمساعدتك!

نبيه: مساعدتي في أي شيء؟

تختخ: لقد تركتنا في الواحة وحضرت إلى هنا بسرعة ... وكان واضحًا أن شيئًا هامًّا قد حدث ... ربما يكون خطيرًا!

وضع «نبيه» يده على رأسه، ثم عاد وأشعل غليونه، وقال: نعم ... هناك شيء خطير قد حدث!

تختخ: إنني أريد أن أعرفه.

نبيه: سأقول لك ... تعالَ بجانبي!

وأسرع «تختخ» يقف بجوار المهندس الذي أشار إلى خريطة أمامه، ووضع أصبعه عليها وحرَّكها من اليسار إلى اليمين قائلًا: هذا هو جبل «أبو طرطور»، وهو ليس مجرد جبل كبقية الجبال المحيطة به، إنه ثروة ... ثروة ضخمة جدًّا ... فهو ليس مكوَّنًا من الرمال أو الصخور ... إنه مُكوَّن من الفوسفات ... هذه المادة الطبيعية الغالية. وسكت المهندس «نبيه» لحظات، ثم عاد يقول: وعندما اكتشفنا هذا الجبل لم يُصدِّق أحد ضخامةَ كمية الفوسفات التي فيه ... إنها تصل إلى ٣٠٠ مليون طن ... ولكي تتصور حجم هذه الكمية، فإن أكبر مشروع في العالم للفوسفات لا يزيد ما فيه على ١٨ مليون طن! وتسابقت دول العالم لمعرفة حقيقته، وتقدَّمت بعروضٍ لتمويل المشروع!

تختخ: إنَّ ذلك شيء عظيم حقًّا ... ولكن أين المشكلة التي طرأت؟

نبيه: المشكلة أنَّ مجموعة الخرائط التي قضينا السنوات نرسُمها له ... الخرائط التفصيلية اختفت كلُّها!

ذهل «تختخ» وصاح: كيف؟

نبيه: ليس هذا فقط، ولكن اختفى معها المهندس «علاء» المسئول عن رسم الخرائط، ومعه «عاشور» أحد أَدِلَّاء البعثة. وعندما كنَّا في الواحة حضر رسول من المعسكر، وأخبرني بما حدث ... واضطُررت لتركك سريعًا والحضور إلى هنا باعتباري رئيس البعثة المسئول!

تختخ: وهل عثرتم على الرجلَين أو الخرائط؟

نبيه: أبدًا ... ولا أثرَ يدلُّ على مكان اختفائهما!

تختخ: ولكن ما الذي حدث بالضبط؟

نبيه: كان المعتاد أن يخرجا معًا كل يوم لاستكمال رسم الخرائط ... ومنذ يومَين خرجا ولم يعودا ...

تختخ: أليس هناك مكان محدَّد يذهبان إليه؟

نبيه: إن مساحة الجبل تَزيد على ١٠٠ كيلومتر مربع ... وهو مختفٍ خلف كثير من الجبال، ونحن نصل إليه عبر طريق وعر طوله ٥ كيلومترات بين الجبال حيث ترتفع إلى ٥٠٠ متر ... قد كان المهندس «علاء» أكثرَ خبرةً بهذا الطريق؛ فهو يعمل في المشروع منذ بدايته. ولم يكن يبتعد كثيرًا عن المناطق التي نعمل فيها ... ولا أدري ماذا حدث!

تختخ: وما هي استنتاجاتكم حول هذا الغياب؟

قال «نبيه» بصوت حزين: ليس هناك سوى احتمال واحد ... حدوث انهيار مفاجئ في الجبل أدى إلى سقوطهما ودفنهما! لقد بحثنا في كل مكان، وما زلنا نبحث، ولكن مساحة الجبل كبيرة جدًّا، وأنا شخصيًّا بدأت أيئس ...

تختخ: أليس هناك حيوانات متوحشة في الجبل؟

نبيه: لم نقابل أيَّ نوعٍ من الحيوانات حتى الآن ... ولكن ...

وصمت لحظات ثم قال: ولكن هناك نوع من الحيَّات السامة تُدعى «الطريشة»، وهي من أخطر الحيَّات، ولدغتها تقتل في دقائقَ قليلة. ولكن لو أنهما أصيبا بلدغة «الطريشة» لعثرنا على جثتيهما وعلى الخرائط ... ولكن لم نعثر على شيء كما قلت لك.

كانت الشمس قد مالت للغروب عندما خرج «تختخ» من المقطورة، وأخذ يسير وسطَ المعسكر في اتجاه المقطورة التي خُصِّصت له والأصدقاء ... كان متعبًا للغاية، وتمنَّى لو أنه استطاع أن يحصل على دُشٍّ بارد، ولكن في هذه الصحراء القاحلة كان الماء أغلى من أن يضيعَ في الاستحمام ... وغاية ما يمكن الحصول عليه بضع كوبات من الماء لإزالة الرمال.

وعندما وصل إلى المقطورة وجد الأصدقاء جميعًا قد اغتسلوا بقدر الاستطاعة، ثم تمدَّدوا على أسِرَّتهم بعد تعب اليوم الطويل.

وبعد أن اغتسل هو الآخر، ألقى بنفسه على سريره، وأطلق آهةَ تعبٍ طويلة، ثم أغمض عينيه واستسلم لنُعاس خفيف.

عندما استيقظ «تختخ» سمع جرسًا يدقُّ في أنحاء المعسكر مُعلنًا إعداد العشاء، وكان الأصدقاء قد اجتمعوا في ركن من المقطورة وأخذوا يتحدثون، فانضم إليهم ... وفي الطريق إلى المقطورة الطويلة التي كانت تُستخدم كقاعة للطعام، روى لهم سريعًا ما دار بينه وبين المهندس «نبيه» من حديث ... ولم يعلِّق أحدٌ منهم بكلمة ... حتى «لوزة» لم تقل إن هناك مغامرة في الطريق. لقد أحسُّوا جميعًا بالكارثة التي وقعت وفقدت فيها البعثةُ رجلَين والخرائط الهامة للجبل الكبير «أبو طرطور» ... وعندما وصلوا إلى المقطورة كانت

الأطباق تحملُ الطعامَ من المطابخ إلى الرجال الذين جلسوا يتحدثون في أصوات منخفضة ... فقد كانوا جميعًا يُحسُّون بوقع الكارثة.

وعندما دخلوا، أشار لهم المهندس «نبيه» ليجلسوا بجواره، جاء الطعام وكانوا جوعى للغاية، فانهمكوا في تناوله، ونسوا لِلَحظاتٍ ما حدث.

وانتهى العشاء، وخرج الأصدقاء معًا، كان القمر الفضي يفرش الصحراء بلونٍ أبيضَ جميل، والريح هادئة وقد انقشع النهار وتعبه واختاروا كومًا من الرمال وجلسوا عليه ... ولحِقَ بهم «زنجر» بعد لحظات وهو يلعق فمه ... وكان واضحًا أنه تعشَّى جيدًا بكمية لا بأس بها من اللحم والعظم ... فقد عرف الجميع الدور الهام الذي قام به في إنقاذ الأصدقاء.

ودار الحديث وأخذت الأسئلة تنهال على «تختخ»، ولكن بالطبع لم يكن عنده معلومات أكثر من تلك التي قالها له المهندس «نبيه».

قالت «نوسة»: شيء مؤسف أن نأتيَ في هذا الوقت غير المناسب.

عاطف: إنني أفضِّل بعد أن نتفرج يومًا أو يومَين أن نعود إلى الواحة فنقضي يومًا آخر، ثم إلى «أسيوط» لـ «القاهرة» ... فإنني لا أحب الحياة في هذا الجوِّ الذي يُخيِّم عليه الحزن.

تختخ: سأترك تحديد موعد عودتنا إلى عمِّي «نبيه»، ولا أظن على كل حال أننا سنبقى هنا طويلًا.

وفجأة ظهر شبح في ضوء القمر مقبل نحوهم. وعندما اقترب عرفوا فيه المهندس «نبيه» الذي حيَّاهم ثم جلس بجوارهم صامتًا ...

قال «تختخ» ليقطع حبل الصمت: كنا نناقش يا عمي موعد عودتنا إلى «القاهرة»، فإننا نشعر أننا ضيوف غير مرغوب فيهم في هذا الجو الحزين ...

رد المهندس «نبيه»: لا أبدًا ... كل ما هنالك أنه لن يكون عندي وقت أقضيه معكم ... بالإضافة إلى أن اختفاء الرجلين أشعرني بخطورة هذا المكان عليكم، وأُفضِّل في الحقيقة أن تعودوا بعد يوم أو يومَين سريعًا إلى «أسيوط» لإخطار جهات الأمن بما حدث.

تختخ: وماذا تتوقع أن يفعلوا؟

نبيه: لا شيء تقريبًا؛ فقد بحثنا في كل مكان، وسنظلُّ نبحث غدًا أيضًا، فإن كمية المياه التي كانت معهما لم تكن تكفي أكثر من يوم واحد، وقد أطلقنا صواريخ إنارة في الليل ولكن لم يعودا ... وقد أطلقنا الليلة ...

وقبل أن يُتمَّ المهندسُ جملته، علت أصوات من جانب المعسكر ... وسمعوا صوتًا يصيح: المهندس «نبيه» ... أين المهندس «نبيه»؟

ورفع «نبيه» صوته قائلًا: أنا هنا!

ثم هبَّ واقفًا ... وأقبل بضعةُ رجالٍ يجرون ناحيته، وقال أحدهم: لقد عاد «عاشور»!

وجرى المهندس «نبيه» تاركًا الأصدقاء في اتجاه الرجال، وقال «تختخ»: لقد تحرَّكت الأحداث!

القصة الرهيبة

عندما وصل «تختخ» إلى المقطورة التي يقود منها المهندس «نبيه» العمل وجدها مزدحمة بالمهندسين والعمال الذين اجتمعوا لسماع قصة الدليل «عاشور». وكان «عاشور» جالسًا في مقعد مريح وقد وضعوا أمامه طعامًا لم يمسَّه، ولكن كان يشرب كوبًا من الشاي.

كانت ثيابُه ممزقة، وقد تغطَّى تحت طبقةٍ من الرمال، وتعلَّقت أنظار جميع الموجودين به. ولم يستطع «تختخ» الاقتراب لزحام الرجال حوله، ولكن كان في استطاعته أن يسمع أكثر الحديث الذي كان يقوله.

قال «عاشور» يجيب عن سؤال لم يسمعه «تختخ»: نعم. لقد مات المهندس «علاء»!

وساد الصمت المكان، ونكَّس الرجال رءوسهم ... وسمع في الصمت المخيم على الجميع صوت بكاء ... وقال المهندس «نبيه» بصوت مُتهدِّج: كيف؟

قال «عاشور» بصوت فيه إعياء: سقط في هوة عميقة، وحاولت الوصول إليه فلم أستطع ... عاد «نبيه» يسأل وكأنه غير مُصدِّق: كم كان الارتفاع الذي سقط منه؟

أجاب «عاشور»: نحو عشرين مترًا.

وعاد الصمت يلفُّ المكان وقال أحد الحاضرين: هل تستطيع الوصول إلى المكان الذي سقط فيه؟

عاشور: لا ...

ثم صمت قليلًا وابتلع ريقه وعاد يقول: الحكاية طويلة ... وهي باختصار أن المهندس «علاء» طلب مني أن نخرج لاستكمال رسوم الجبل، وأخذنا معنا بعض الطعام وكمية من الماء والشاي تكفي اليوم على أن نعود في المساء ... وسرنا مسافة طويلة. وكان المهندس «علاء» سعيدًا؛ لأنه عثر على مناطقَ جديدةٍ لخام الفوسفات، فأخذ يتقدَّم بسرعة وأنا

معه ... وعندما لفت نظره أننا نبتعد كثيرًا في منطقة مجهولة، طمأنني وقال: إننا بالتأكيد سنتمكَّن من العودة.

وسكت «عاشور» ليرشف من كوب الشاي ثم عاد يقول: وابتعدنا كثيرًا وهو منهمك في تسجيل الرسوم وأخذ العينات ... وعندما تحوَّلت الشمس إلى ناحية الغرب طلبت منه أن نعود، ولكنه قال إن أمامه ساعة أخرى في العمل فتركته، وكنت متعبًا فنمت في ظلِّ صخرة، وطلبتُ منه أن يوقظَني عندما ينتهي من عمله ... وعندما استيقظت من النوم كان الظلام قد هبط. ونظرت حولي فلم أجد المهندس ... كان ذلك شيئًا لم يحدث من قبل!

وصمت «عاشور» لحظات، والصمت يلفُّ المكان تمامًا، وقد تزايد عدد المستمعين حتى شمل كل من في المعسكر بما فيهم بقية الأصدقاء الخمسة ... وحتى «زنجر» كان يقف بجوار باب المقطورة وكأنه يريد ألا تفوته القصة الحزينة.

ومضى «عاشور» يقول: ناديته فلم أسمع ردًّا ... أخذت أسير في اتجاهات مختلفة لعلِّي أعثرُ عليه، فلم أجده ... وأخذت أفكر: هل يمكن أن يكون قد عاد إلى المعسكر وحده؟ واستبعدت هذا الخاطر، فليس من المعقول أن يتركَني وحدي ويعود ... ماذا حدث إذن؟ وماذا أفعل؟

وسكت «عاشور» كأنه يفكِّر في الإجابة، ثم عاد يقول: لم أستطع ساعتها أن أعرف ماذا حدث، ولكن قلبي حدثني أن شرًّا مستطيرًا قد وقع ... وقررت أن أبقى مكاني حتى الصباح ... فلم يكن من الممكن البحثُ عنه ليلًا. وظللت ساهرًا حتى الفجر ... وبدأتُ البحثَ في كل مكان حولي ... لم تكن هناك آثار على الأرض بالطبع، فهي أرض صخرية جافة. وظللت أسير هنا وهناك ولكن الوقت مضى بدون فائدة ... وقررت العودة ...

كان «تختخ» يتابع القصة كما لم يتابع شيئًا من قبل ... فقد كانت قصة مثيرة لأقصى حد. وعندما نظر إلى الأصدقاء الذين كانوا بعيدين عنه استطاع أن يلمح على وجوههم لهفةً لا تقلُّ عن لهفته ...

ومضى «عاشور» يقول: وفوجئت بأنني تائه ... لقد سرت طويلًا مع المهندس «علاء»، ثم في أثناء البحث عنه سرت في اتجاهات مختلفة ففقدت طريقي تمامًا ... وأخذت أجري كالمجنون، ولكن بدون جدوى ... وهبط الليل وأنا ما زلت أبحث عن الاتجاه الصحيح، بدون أن أعرفه ... ومرة أخرى قضيتُ الليل في مكاني على أمل أن ترسلوا في الصباح بعثاتٍ للبحث عنَّا.

قال المهندس «نبيه»: لقد أرسلنا ... وأطلقنا صواريخ إنارة ليلًا ...

قال «عاشور»: هذه الصواريخ هي التي أنقذت حياتي!

وعاد يُكمل قصته: وقضيت الليل وحدي، واستسلمت للنوم بعد تعب اليوم الطويل في المشي والجري، وطبعًا الجوع والعطش. وفي اليوم التالي بدأتُ السيرَ مرة أخرى، وفجأة وجدتُ على البعد ورقةً بيضاءَ على طرف صخرة مائلة، فأسرعت إليها وقد انتعشتْ نفسي بالأمل … ولكن عندما وصلت إليها تبدَّد الأمل، وفوجئت بالحقيقة المذهلة … فعندما أمسكت بالورقة عرفت أنها إحدى الخرائط … ونظرت لأرى أين بقية الأوراق فلم أجدها … وصعدت فوق الصخرة وألقيت نظرة، وفي قلب تجويف بين صخرتين استطعت أن أرى على ضوء الشمس القوية، وعلى بعد نحو عشرين مترًا، المهندس «علاء» وقد انطرح مُحطَّمًا على الصخور!

وأحسَّ «تختخ» بقلبه يعتصر، وبرأسه يدور، وسمع المهندس «نبيه» يسأل في صوت عميق كأنه يأتي من مكان سحيق: وكيف تأكدت من شخصيته؟

عاشور: إنني بالطبع لم أستطع الاقتراب منه مطلقًا، فلم يكن من الممكن النزول إليه، ولكني عرفته من ثيابه … قميصه الأبيض والشورت الأصفر … كما أنَّ الأوراق التي كانت معه رأيتها متناثرة حول جثته.

وعاد الصمت وامتدَّ في هذه المرة فترة طويلة، ثم عاد «عاشور» يقول: وقضيت بقية النهار برغم تعبي وجوعي وعطشي أحاول الوصول إليه، ولكن عبثًا … وكان واضحًا أنه كان يسير وسقط بدون أن يشعر، أو أن أوراقه طارت منه فأسرع خلفها وسقط … وفي بداية هذا المساء شاهدت الصواريخ المضيئة التي أطلقتموها … واستطعت الوصول إلى هنا.

انتهت القصة الحزينة، وقال المهندس «نبيه» لـ «عاشور»: قم أنت لمقابلة الطبيب، وفي الصباح سوف يكون لنا حديثٌ آخر، فلا بُدَّ من مواصلة البحث عن مكان «علاء»، ومحاولة استعادة الخرائط والمذكرات التي كانت عند «علاء»!

وانفضَّ الاجتماع، وخرج الأصدقاء إلى الصحراء وإلى ضوء القمر، ولو لم يكونوا قد استمعوا إلى قصة «عاشور» المؤلمة، لكان في إمكانهم أن يستمتعوا بليل الصحراء الهادئ … وقمره المضيء. ولكنهم كانوا صامتين … وكلٌّ منهم يفكر في القصة التي سمعها … وكان «زنجر» يسير خلفهم مطأطئ الرأس هو الآخر.

وعندما عادوا إلى الربوة التي كانوا جالسين عليها في المساء قال «تختخ»: لا بُدَّ أن نشترك في البحث عن هذه الخرائط الهامة.

محب: ولكن كيف؟ إن الجبل وعر، ونحن لسنا متمرنين على تسلُّق الجبال …

تختخ: سنأخذ «زنجر» معنا ... وبعد أن يشم بعض ثياب المهندس «علاء» سنطلقه إلى المكان الذي يحدِّده «عاشور» لعله يستطيع الوصول إلى مكان جثة «علاء»، وبعدها من الممكن أن ينزل بعض الرجال بالحبال؛ لإحضار الخرائط ... إن عمي المهندس «نبيه» مهتم بها جدًّا.

وقام الأصدقاء للنوم ... وتخلَّف «تختخ» للذهاب إلى دورة المياه، فسبقه الأصدقاء إلى المقطورة. وعندما خرج «تختخ» من دورة المياه وجد نفسه يسير ناحية العيادة الطبية حيث كان «عاشور» قد ذهب مع الطبيب ...

كانت العيادة عبارة عن مقطورة صغيرة، وكانت نافذتها مفتوحة ومُضاءة. وفكَّر «تختخ» قليلًا ثمَّ اقترب بهدوء، ووقف تحت نافذة المقطورة، ووقف يستمع ... كان ثمة حديث يدور.

سمع صوتًا غير صوت «عاشور» — كان في الأغلب صوت الطبيب — يقول: من حسن الحظِّ أنك استطعت الحياة كل هذه المدة بلا ماء ... شخص غيرك كان لا بُدَّ أن يَسقُطَ إعياءً ولا يتمكَّن من الحركة ... ولكن الحياة البدوية وتعوُّدك العطشَ أنقذاك من موت محقق.

وجاء صوت «عاشور»: لقد استخدمت كمية الماء التي كانت معي باقتصاد شديد ... فقد كان معي «زمزمية»، وكان مع المرحوم المهندس «علاء» «زمزمية» أخرى ... وقررت ألا أشرب إلا عندما أصل إلى أقصى درجات العطش.

الطبيب: سأتركك تنام هنا الليلة، فهذا أفضل لك، والحقن التي أعطيتها لك ستساعدك على استرداد قواك.

وعندما سمع «تختخ» صوت أقدام الطبيب داخل المقطورة أسرع يختفي تحتها ... ثم بقيَ في مكانه حتى غادر الطبيب المقطورة، وانتظر فترة طويلة، ثم عاد يستمع تحت النافذة ... ولكن لم يكن هناك صوت يُسمع ...

كان «تختخ» يتمنى أن يتحدث إلى «عاشور» حديثًا طويلًا ... كان في رأسه أسئلة يودُّ أن يطرحَها عليه ... ولكن لم يكن هذا موعدًا مناسبًا ... وبخاصةٍ بعد رحلةِ الهلاك التي قطعها «عاشور» وعاد بها من الموت إلى الحياة.

وهكذا قرَّر «تختخ» أن يعود للأصدقاء ... وأن يُبقيَ الحديثَ مع «عاشور» إلى صباح الغد.

وعاد «تختخ» ووجد الأصدقاء ما زالوا مستيقظين في انتظار عودته ... كانت القصة المؤلمة التي سمعوها عن مصرع المهندس «علاء» قد أثَّرت فيهم كثيرًا، وقالت «لوزة» عندما

شاهدت «تختخ»: هل سنشترك غدًا في مهمة البحث عن ... كانت تريد أن تقول المهندس «علاء»، ولكن نفسها لم تطاوعها ... فقد مات. وفهم «تختخ» ما تقصد، فقال: لا أظن أنهم سيسمحون لنا بالاشتراك في البحث ... إنها مهمة شاقة في هذا الجبل ... ولكني سأحاول الذَّهاب معهم وحدي على أن تنتظروا أنتم هنا!

محب: ألا أستطيع أن آتيَ أنا معك؟

تختخ: لا أدري ... دعوا المسألة كلها حتى الصباح وسوف نرى. وأطفأ «تختخ» النور، واستسلم الأصدقاء للرقاد بعد يوم حافل بالتعب والأخبار السيئة ... وكذلك فعل «زنجر» الذي اختار مكانًا عند سلالم المقطورة ونام.

عندما استيقظ الأصدقاء في صباح اليوم التالي ... كان المعسكر أشبه بخلية نحل ... فقد قسم المهندس «نبيه» رجاله إلى ثلاث فرق للبحث، وأسرع «تختخ» إليه وطلب منه أن ينضمَّ إلى إحدى فرق البحث ... وحتى يقنعه قال له: إن معي «زنجر» وهو كلب بوليسي مُدَرَّب وله حاسة ممتازة للشم ... فإذا جعلته يشم قطعةً من ملابس المهندس «علاء» فقد يستطيع العثور على جثته.

وافق المهندس «نبيه» فقال «تختخ»: هل سيأتي «عاشور» معنا؟ ردَّ المهندس «نبيه»: لا أدري إذا كانت حالته ستسمح بالحضور معنا أم لا ... سوف أذهب لرؤيته.

اتَّجه المهندس «نبيه» ناحية العيادة ومعه «تختخ»، وعندما فتحوا الباب لم يجدوا «عاشور»، فقال «نبيه»: إنه استيقظ مبكرًا ولعله عند المطابخ يتناول الشاي. فإن البدو يكثرون من شرب الشاي في كل وقت.

وفعلًا كان «عاشور» عند المطابخ يتناول كوبًا من الشاي، وعندما شاهد المهندس «نبيه» وقف احترامًا له.

فسأله المهندس: هل تأتي معنا؟

عاشور: طبعًا ... إنكم لن تستطيعوا الوصول إليه بدوني.

وبعد ساعة كانت فرق البحث مستعدة، وبدءوا تسلُّق الجبل ... كانت مهمة شاقة حقًّا، وأحسَّ «تختخ» منذ اللحظة الأولى أنه سيتعب كثيرًا وبخاصة وهو سمين ... ولكن رغبته في الاشتراك في البحث جعلته يصمم على الذهاب، وكانوا قد أحضروا معهم قميصًا من قمصان المهندس «علاء»؛ ليشمه «زنجر». وهكذا وقف «محب» و«عاطف» و«نوسة» و«لوزة» يرقبون صديقهم السمين وهو يتأرجح صاعدًا الجبل وخلفه «زنجر» يقفز برشاقة فوق الصخور.

ومضت نحو ساعة، ثم اختفت البعثات الثلاث في الجبل. وعاد الأصدقاء الأربعة يبحثون عن شيء يقطعون به الوقت … ولم يكن هناك شيء في الصحراء القاحلة يمكن عمله … فأخرجت «نوسة» رقعة «الشِّطْرنج»، وسرعان ما اشترك «محب» و«عاطف» في مباراة حامية، وفجأة قالت «لوزة»: هل تعتقدون أنهم سيعثرون على …؟ قالت «نوسة»: أنا لا أعتقد!

محب: لماذا؟

نوسة: لا أدري … ولكني أحس أن مهمة البعثات الثلاث سوف تنتهي بالفشل برغم وجود «زنجر».

الطريق المجهول

كان صعود الجبل بالنسبة لـ «تختخ» مهمة شاقة، ولكنها لذيذة وممتعة ... كان يعرف أن الأكسجين يقل كلما زاد الارتفاع وأنه سوف يتعب، ولكن دافع المغامرة والتجربة الجديدة دفعاه إلى الحماس في تتبع «زنجر» وهو يسبقه جاريًا خلف البعثة الأولى التي يرأسها المهندس «نبيه» ومعه «عاشور» الدليل.

لم يكن الجبل شديد الوعورة كما توقع «تختخ» بل كان شبه مستوٍ، فكان التقدم سريعًا في الاتجاه الذي أشار إليه «عاشور»، وبعد مسيرة نحو ساعة، أشار «عاشور» إلى بقعة من سطح الجبل وقال: هنا جلسنا أوَّل مرة، وأخذنا كمية من العينات.

وفعلًا شاهد «تختخ» بُقَعًا محفورةً من الصخور الهشة، وأخذ المهندس «نبيه» يفحصها ثم قال: إنها تحتوي فعلًا على نسبة عالية من الفوسفات، فهو واضح بين خطوط الصخور.

وساروا مرة أخرى ... وكانت البعثتان الأخريان تصحبانهم في الاتجاه نفسه في انتظار الوقت الذي لا يستطيع فيه «عاشور» تحديد الاتجاه بالضبط، فينتشر الجميع.

ومرت ساعة أخرى وبدا الجبل أكثر وعورةً، وبدأت أنفاس «تختخ» تتلاحق، ولكنه مضى مستمتعًا بالجو الجديد ... فهذه أول مغامرة يصعد فيها جبلًا ...

ومرة أخرى أشار «عاشور» إلى مكان آخر ... ووجدوا بقعًا محفورة في سطح الجبل حيث أخذ المهندس «علاء» عينات أخرى ... وبعد فترة من البحث جلسوا جميعًا للراحة.

دارت مناقشة حول احتمالات سقوط المهندس «علاء»، ولكنها لم تنتهِ إلى شيء محدد ... وكان «تختخ» يستمع باهتمام بدون أن يشترك في الحديث. وبرغم أن المهندس الشاب قد مات وانتهى الأمر، إلا أنه كان يريد أن يعرف بالضبط كيف مات! وكان يتمنى أن يساعد عمَّه المهندس «نبيه» في استعادة الخرائط والمذكرات التي تركها المهندس الشاب.

وبعد أن ارتاحوا بدءوا السير مرة أخرى، وكانوا قد أشرفوا على نهاية الجبل من الناحية الغربية عندما أشار «عاشور» إلى صخرة نائية، وقال: هنا وصلنا وهنا نمت.

وأسرعوا جميعًا إلى المكان ... لم يكن هناك شيء يمكن أن يدلَّ على الطريق الذي سلكه «علاء» بعد ذلك ... الطريق المجهول الذي انتهى بسقوطه وموته ... وعاد «عاشور» يتحدث: نمت طويلًا، وعندما استيقظت لم أجد المهندس «علاء» وهِمْتُ بعد ذلك على وجهي ... كنت أشبه بالمجنون وأنا أبحث عنه ... وهكذا أخذت أجري هنا وهناك، وأناديه ولكن بدون فائدة ... فلم أجده ولم يرد.

وسكت «عاشور» والأنظار كلها متعلِّقة به ثم مضى يقول: وبعدها — كما شرحت لكم — رأيته من أحد شعاب الجبل وهو ميت ... على صخرة في هاوية ترتفع جدرانها نحو ٢٠ مترًا!

قال المهندس «نبيه» معلقًا: ألا تستطيع أن تتذكر الآن وأنت في هذا المكان أين شاهدته؟

أخذ «عاشور» ينظر حوله، ويرفع رأسه، ثم أجاب في يأس: لا أستطيع!

قال المهندس «نبيه»: الآن ستنتشر البعثات الثلاث ... كل واحدة في اتجاه وسنقضي الليلة هنا. فلنعد إلى نفس المكان عند غروب الشمس ... وسنشعل إشارة دخان تستمر حتى عودتنا.

وتقدم أحد الرجال فأشعل مشعلًا يرسل دخانًا كثيفًا، ثم تفرَّقت البعثات، كلٌّ واحدةٍ في اتجاه مختلف ... وكانت جميعها تتجه إلى أطراف الجبل في أماكن مختلفة باحتمال أن يكون المهندس «علاء» قد سقط عند أحد هذه الأطراف.

وأخرج «تختخ» قميص المهندس، وأدناه من أنف «زنجر» الذي أخذ نفسًا عميقًا، ثم مضى يسير وخلفه «تختخ» والمهندس «نبيه» والمهندس «مسعد» وسار «عاشور» معهم فاحصًا مدققًا.

واستمرَّ السير ... وكان «تختخ» يأمل أن يندفع «زنجر» فجأة إلى حيث يوجد «علاء»، ولكن «زنجر» كان يسير مترددًا يدور حول نفسه ... وشعر «تختخ» بشيءٍ من الخجل؛ لأن الرجال كانوا يرمقون «زنجر» باستخفاف، فقد كان واضحًا أنه أيضًا ضلَّ طريقه، وأن الطريق المجهول الذي سار فيه «علاء» سيظلُّ مجهولًا ...

واقتربت ساعة الغروب، واستعدوا للعودة ... وفجأة اندفع «زنجر» في اتجاه حافة الجبل، ووقف رافعًا رأسه ينبح ... واندفع الرجال خلفه ... ووقفوا ينظرون في البقعة التي وقف فيها، نظروا إلى أسفل ... لم يكن هناك شيءٌ على الإطلاق ... لقد كان الجبل ينحدر طبيعيًّا أشبه بطريق ممهد ينزل إلى أسفل ...

لم تكن هناك صخور مرتفعة ... ولا مكان يمكن أن يسقط فيه أحد. ووقف «تختخ» مع الرجال حائرًا ... لم يكن هناك شيء يسبب اهتمام «زنجر» المفاجئ ... فماذا حدث؟ مضت فترة و«تختخ» يدور في البقعة التي وقف فيها «زنجر» وينظر إلى أسفل ... لم يكن هناك شيء على الإطلاق. قال المهندس «نبيه»: هيَّا بنا ... لقد أشرفت الشمس على الغروب، ولا بُدَّ من العودة فورًا.

اتخذوا طريق العودة ... ولكن «زنجر» ظلَّ واقفًا في مكانه، وقد بدا راغبًا في الهبوط إلى أسفل الجبل، ولكن الرجال اتجهوا عائدين، فقال «تختخ» موجهًا كلامه إلى «عاشور»: ألم تأتِ إلى هذا المكان؟

ردَّ «عاشور» مؤكدًا: أبدًا ... لم آتِ إلى هذا المكان ... والمكان الذي سقط فيه المهندس «علاء» كان بين صخرتين عاليتين ... كما قلت لكم، يبلغ عمق الهوة التي بينهما حوالي عشرين مترًا!

جذب «تختخ» كلبه الأسود في ضيق، وعاودوا السير ... ووصلوا إلى عمود الدخان بعد الغروب ... وكانت البعثتان الأخريان قد وصلتا ... وكان واضحًا على وجوه الرجال أنهم لم يُوفَّقوا إلى شيء.

هبط الليل على المعسكر الصغير ... وابترد جو الصحراء وخاصة أنهم مرتفعون عن مستوى البحر كثيرًا ... فأشعل الرجال نارًا جلسوا حولها، وانطرح «تختخ» على ظهره. كانت قدماه تؤلمانه؛ لكثرة سيره في هذا اليوم ... وأخذ يتطلَّع إلى النجوم في السماء واستطاع أن يعرف منها مجموعة «الدب الأكبر» ... ولا يدري لماذا تذكر «عاشور» الذي فضَّل أن ينام فورًا بعد أن شكا من أنه متعب جدًّا. ومضى الوقت والرجال يتحدثون، ثم خفتت الأصوات ... وأوى الرجال إلى الخيام الثلاثة التي أقيمت، وقام «تختخ» إلى الخيمة التي يقيم فيها مع عمه المهندس «نبيه» ومعهما المهندس «مسعد»، فوجدهما يغطان في نوم عميق ... فربَّت على رأس «زنجر» الذي جلس أمام الخيمة.

استسلم «تختخ» للرقاد فورًا ... وفجأة — وهو نائم — أحسَّ بشيءٍ طريٍّ يلعق وجهه فكاد يصرخ ... ولكن تذكَّر على الفور أن «زنجر» اعتاد إيقاظه بهذه الطريقة، فاستيقظ، ووجد «زنجر» فعلًا أمامه في ظلام الخيمة الخفيف ... ولاحظ أن الكلب يلهث، فوضع يده على رأسه ووجده ساخنًا ... كان واضحًا أن الكلب جرى كثيرًا وأنه عاد لتوِّه من مشوار طويل.

جلس «تختخ» في مكانه، واعتادت عيناه الظلام ... فوجد «زنجر» ينحني على الأرض ويقدِّم له بين أسنانه منديلًا أبيض ... كان النوم ما زال مسيطرًا عليه فكاد ينهر الكلب ...

ولكن شيئًا فشيئًا أدرك أن هذا المنديل لا بُدَّ أن يعنيَ شيئًا بالنسبة لـ «زنجر»، المغامر الذكي. فأمسك بالمنديل محاذرًا وهو ينظر حوله خوفًا من أن يُزعج عمَّه أو زميله المهندس، ولكن أنفاسهما المنتظمة أكدت أنهما مستغرقان في النوم.

قام «تختخ» بهدوء شديد وخرج من الخيمة يتبعه «زنجر» … كانت هناك أشياء يجب أن يفكر فيها جيدًا … أين ذهب «زنجر»؟ ولماذا هذه الأنفاس المتسارعة، ودرجة الحرارة العالية التي أحسها عندما وضع يده على رأسه! وعن هذا المنديل وماذا يعني!

وقف خارج الخيمة يتأمل ما حوله … كان الصمت المطبق يلفُّ الصحراء الواسعة والقمر يميل للمغيب. معنى هذا أنه في ساعة متأخرة من الليل … وأخذ يتأمل المنديل في ضوء القمر الغارب. وخُيِّل إليه أنه يرى عليه بقعًا داكنة فعاد إلى الخيمة … ومن حقيبته الصغيرة أخرج بطاريته وعاد إلى الخارج، وعلى ضوء البطارية شاهد البقع … كانت دماء متجمدة … ودقَّ قلبه سريعًا، وبرقت في ذهنه فكرة … لقد عرف «زنجر» مكان جثة المهندس «علاء» وأحضر منديله!

ولكن كيف التأكد من هذه الفكرة؟

وهل يُخطِر عمه المهندس «نبيه» بما حدث أوَّلًا؟

ونظر في ساعته … كانت الثالثة صباحًا … فماذا يفعل الآن؟

كانت الإجابة عند «زنجر» الذي كان يجري ناحية «تختخ» ثم يندفع إلى الأمام … ووجد «تختخ» نفسه يسير خلف «زنجر»، ثم يسرع في السير حتى كاد يجري. فقد كان «زنجر» متعجلًا، كأنما هناك شيء هام لا بُدَّ أن يراه صاحبه. وهكذا وجد «تختخ» نفسه متجهًا ناحية حافة الجبل حيث كانوا في الصباح. وكان «زنجر» يجري في خط مستقيم بدون تردد كأنه يعرف ما يريد بالضبط، وليس كالصباح عندما كان يدور حول نفسه لا يدري ماذا يفعل.

وعندما كان ضوء الفجر يتسلل إلى الأفق، وصل «زنجر» وخلفه «تختخ» إلى حافة الجبل، في المكان نفسه الذي وقفوا جميعًا فيه في الصباح بدون أن يعرفوا ماذا يريد «زنجر» … وتوقف «زنجر» يسترد أنفاسه اللاهثة ثم بدأ يهبط الجبل إلى الجانب الغربي منه، وتبعه «تختخ» ولم يكن الجبل شديد الانحدار في هذه الناحية فكان النزول سهلًا … ومضى «زنجر» وخلفه «تختخ» يهبطان حتى وصلا إلى نهاية سفح الجبل، حيث كانت الرمال ناعمة تمامًا تغوص فيها الأقدام … وكان ضوء الفجر قد ملأ السماء … واستطاع «تختخ» أن يرى — حيث وقف «زنجر» يلهث — آثار أقدام بعضها قديم وبعضها حديث

جدًّا ... وكان ذلك واضحًا من نوع التجويف الذي تركته الأقدام في الرمال ... ثم لاحظ «تختخ» شيئًا هامًّا ... كانت هناك قطع من عينات خام الفوسفات ملقاة في الرمال تكاد تختفي ... وانحنى «تختخ» والتقطها وأمسكها بين يديه يتأملها ... كانت مقطوعة من الجبل بواسطة شخص ولم تقع وحدها، فقد كان واضحًا فيها آثار انتزاعها بآلة حادة من الجبل ... وتلفَّت «تختخ» حوله، لم يكن هناك شيء آخر ... وكان «زنجر» يقف أمامه ينظر إليه، وكأنه يسأله: ما رأيك؟

وربت «تختخ» على رأس كلبه الذكي، وقال له: لقد أحسنت تمامًا ... والآن هيا بنا نعود.

وبدأ «تختخ» الصعود وخلفه «زنجر» ... كان الصعود متعبًا، ولكن «تختخ» كان مهتمًّا أن يعود للمعسكر قبل أن يستيقظ الرجال، فقد قرر أن يُخفيَ كل ما وجد حتى يلتقي بالأصدقاء ويناقش معهم الموقف.

أخيرًا تم صعود الجبل، وبدأ السير ... وكانت الشمس قد بدأت تُرسل أشعتها على الصحراء ... فكان المنظر فاتنًا لا يُنسى. وكان «زنجر» يقفز حول صاحبه ويجري، وكأنه ما زال في حاجة إلى كلمات تشجيع أخرى ... ولكن «تختخ» كان يسير غير ملتفت إليه ... فقد كان غارقًا في أفكاره وخواطره ... ما معنى وجود المنديل الملوث بالدم؟ ومن أين أتى به «زنجر»؟ هل من المكان نفسه الذي وجد به العينات في الرمال أو من مكان آخر؟ وإذا كان المنديل يخصُّ المهندس «علاء» فماذا يعني هذا؟ وإذا لم يكن يخصه ... فمَن يخص إذن؟ ما هي دلالة وجود قطع الصخور الفوسفاتية في ذلك المكان؟ وهل هي العينات التي حصل عليها المهندس «علاء» أو شخص آخر؟

أسئلةٌ كثيرةٌ جدًّا، والإجابات تحمل عشرات الدلالات. وكان «تختخ» في حاجة إلى أن يُلقيَ كل هذه الأسئلة أمام المغامرين ويسألهم رأيهم، ولكنهم ما زالوا بعيدين عنه ... فقد تستمر البعثات اليوم ... وقد تستمر يومًا ثالثًا ... وقد يكون محتاجًا إلى تصرفٍ سريعٍ قبل أن تصبح هذه الأدلة التي حصل عليها لا قيمة لها.

وكان مستغرقًا في خواطره تمامًا، فلم يلتفت إلى ما يحدث حوله ... وفجأة خُيِّل إليه أنه يسمع شيئًا قريبًا خلفه ... وأحسَّ بالخطر يحيط به ... ولم يكد يلتفت حتى وجد نفسه يتعثر في صخرة، ثم يسقط على وجهه سقطة قوية وأحسَّ بألمٍ هائلٍ في رأسه، ثم غاب عن الوعي.

حادث فوق الجبل

لا يدري «تختخ» كم مضى من الوقت وهو في غيبوبته ... ولكنه استيقظ على أصوات مختلفة حوله ... تبين بينها صوت «لوزة» تسأل في لهفة عنه، وصوت عمه يطمئنها. وعندما فتح عينيه وجد نفسه على فراشه في المقطورة وحوله الأصدقاء والمهندس «نبيه» والطبيب ... وقال الطبيب مبتسمًا: لقد أفاق ولم يكن هناك خطر عليه ... إنه في حاجة للراحة فقط.

وأخذ يتذكر تدريجيًّا ما حدث له ... ونظر إلى الأصدقاء ... لم يكن هناك شيء غير عادي على وجوههم عدا الانزعاج عليه ... وقال بصوت واهن: ماذا حدث؟

قال المهندس «نبيه»: عثرنا عليك فوق الجبل مُغمًى عليك ... وقد أُصِبْتَ في رأسك، ولولا «زنجر» لكان مصيرك مجهولًا!

وأخذ «تختخ» يتذكر ما حدث من السير فوق الجبل ... والعينات ... والمنديل الملوث بالدم ... و«زنجر» ... نعم ... ثم سقوطه على الصخرة، وبعدها لا شيء، حتى استيقظ الآن.

وقال بصوت واهن: هل عثرتم على مكان «علاء»؟

رد المهندس «نبيه»: لا ... وقد قررنا إيقاف البحث عنه، فليس هناك فائدة من إضاعة الوقت ... وقد بدأنا العمل مرة أخرى.

ومرت لحظة صمت و«تختخ» يفكر في المنديل ... والعينات ... ثم قرر ألا يقول شيئًا إلا بعد الحديث إلى المغامرين ... وقال المهندس «نبيه»: سأتركك الآن مع أصدقائك وأذهب للعمل ... وعليك أن ترتاح تمامًا حسب تعليمات الطبيب.

وعندما أصبح «تختخ» والأصدقاء وحدهم طلب منهم أن يجلسوه في الفراش ... فأسرعوا يعاونونه، وأحسَّ بثقل في رأسه، وكأنه لا يستطيع أن يحمله، وأسرعت «نوسة» تُقدِّم له كوبًا من الشاي الساخن.

قال «تختخ»: لا تنزعجوا ... إن وجوهكم الجميلة يبدو عليها الذعر.

لوزة: ماذا حدث؟ إنك مصاب في رأسك!

تختخ: نعم أعرف ذلك، ولكني ما زلتُ حيًّا ... وقد حصلت على معلومات ربما تكون هامة.

محب: عن أي شيء؟

تختخ: عن المرحوم المهندس «علاء»!

عاطف: لقد كدت تصبح أنت الآخر مرحومًا.

تختخ: إن الرحمة ليست للموت فقط يا أستاذ ... إنها للأحياء أيضًا ...

محب: سندخل في الفلسفة ... المهم ماذا حدث؟ وعلى أي شيء عثرت؟

وروى «تختخ» ما حدث له منذ دخل «زنجر» خيمته ليلًا وأعطاه المنديل الملوث بالدم ... ورحلته قرب الفجر في الجبل ... وعثوره على العينات الفوسفاتية، ثم طريق العودة وإحساسه أن شيئًا يحدث خلفه، ثم سقوطه وإصابته.

نوسة: هل تظن أن شخصًا كان يتبعك؟

تختخ: في الحقيقة لا أدري بالضبط ... لقد كان مجرد إحساس بالخطر، فمن الذي سيتبعني في الجبل في الفجر؟!

ومدَّ «تختخ» يده في جيبه ليُخرج المنديل ... والعينات ... ولكن لا شيء في الجيب الأول ... ووضع يده في الجيب الثاني ... لا شيء ... ومضى يبحث كالمجنون في كل جيوبه ... ولكن لا العينات ولا المنديل كان لهما وجود!

قال «تختخ» بصوت غاضب: لقد استولى شخص ما على ما كان في جيوبي!

محب: لعله الشخص المجهول الذي كان يتبعك في الصحراء.

تختخ: ربما ... إنني لست متأكدًا!

نوسة: إنك رأيت المنديل والعينات ... فما هي استنتاجاتك حولهما!

وضع «تختخ» يده على رأسه لحظات ثم قال: عندي إحساس بأن المهندس «علاء» لم يسقط وحده من على الجبل.

محب: تقصد أن شخصًا دفعه كي يقع؟

تختخ: أُرجِّح ذلك.

عاطف: ولكن هذه جريمة قتل ... وما دام لم يكن معه سوى «عاشور» فإن تهمة القتل تُوَجَّه فورًا إلى «عاشور»!

تختخ: إننا لا نريد أن نقفز إلى هذه النتائج بسرعة ... ولكن قصة «عاشور» عن سقوط المهندس «علاء» فيها قدر من الأشياء غير الطبيعية ... مثلًا، إن «عاشور» ضلَّ طريقه ذلك شيء نادر الحدوث بالنسبة لدليل يعرف الأماكن جيدًا. ومع ذلك فلنسلم أنه ضلَّ طريقه ... كيف حدث أنه استطاع الحياة ثلاثة أيام بماء قليل؟ ومع ذلك مرة ثانية فلنسلم أنه استطاع الحياة هذه المدة بلا ماء ... فماذا كان شكله عندما عاد؟ لقد كان يبدو عليه الإجهاد فعلًا ... ولكن ليس إجهاد رجل ضلَّ طريقه في الصحراء ثلاثة أيام في الشمس الحارقة وبلا كمية كافية من الماء. ومع ذلك مرة ثالثة لا بأس بذلك، هل ألقيتم نظرة فاحصة إلى نعليه؟ ... إن رجلًا يسير ثلاثة أيام لا بُدَّ أن يبدو هذا على ما يلبسه في قدميه ... ولكن نعلي «عاشور» كانا في حالة عادية ...

عاطف: وماذا تريد أكثر من هذا لتُوَجِّهَ له الاتهام؟

تختخ: ومَن نحن حتى نوجه الاتهام إليه يا «عاطف»؟ ثم ما هي الأدلة التي نملكها حتى نوجه له هذا الاتهام الخطير؟

صمت الأصدقاء جميعًا بعد أن سمعوا حديث «تختخ» ... لقد كانت فعلًا هناك شبهات، ولكن لا ترتفع إلى أن تصبح أدلة ... ومع ذلك فهناك جريمة ما قد حدثت راح ضحيتها المهندس «علاء» ... وهم يشعرون أنهم يستطيعون الكشف عن حقيقة ما حدث!

فجأة عاد «تختخ» إلى الحديث قائلًا: اذهب يا «محب» ... وحاول أن تعرف من هو أوَّل من عثر عليَّ في الجبل ... حاول ألا تكشف عن غرضك، ثم عد لنا فورًا.

وتحرك «محب» سريعًا وخرج من المقطورة ... وانهمك الأصدقاء في الحديث مرة أخرى، فقالت «نوسة»: تعالَوْا نتصور أن المنديل الذي أحضره «زنجر» يخصُّ المهندس «علاء» فماذا يعني هذا؟

لوزة: هذا يعني أنه أصيب أوَّلًا ... ثم ربط إصابته بالمنديل ... ثم سقط بعد ذلك ومات.

تختخ: هذا كلام معقول جدًّا ... ولكن ماذا كان نوع إصابته؟ هل أصيب بطريقة عرضية مثلما قيل ... أو أن شخصًا معينًا أصابه؟

عاطف: أيًّا كان الأمر فإن «عاشور» لم يتحدث عن إصابة المهندس «علاء» مطلقًا ... ومعنى هذا أن هناك أسرارًا لم نعرفها قبل وفاة المهندس «علاء» ... فكيف نقنع «عاشور» بالكلام؟

تختخ: ذلك شيء مستحيل ... فإذا كان هو السبب في موت المهندس «علاء» فلن يتحدث مطلقًا ... فليس هناك سبب يدفعه إلى اتهام نفسه وخاصة أنه ليس هناك شهود.

نوسة: شيء آخر ... العينات التي عثر عليها «تختخ»، ما سبب وجودها هناك؟ تعالوا نتصور مرة أخرى أنها بعض العينات التي حملها المهندس «علاء»، فما سبب وجودها في هذا المكان؟ ذلك يعني أن «علاء» كان هناك، أو أن شخصًا نقلها إلى هذا المكان. فمَن هو هذا الشخص؟

عاطف: مرة أخرى نجد أن أصبع الاتهام تشير إلى «عاشور» ... ولكن السؤال المهم فعلًا ... لماذا؟

تختخ: نعم ... لماذا؟ لماذا أصابه؟ لماذا أسقطه من فوق الصخرة؟ لماذا؟!

لوزة: ليس هناك سوى سببين فقط ... أن تكون بينهما خلافات أدت إلى هذه النتيجة ... أو أن لـ «عاشور» مصلحة في موت المهندس «علاء»!

تختخ: الحقيقة أن علينا أن نفسر كلمة لماذا أوَّلًا وقبل كل شيء، وبعدها قد نصل إلى استنتاجات محددة.

عاطف: نستطيع أن نعرف ما إذا كان بينهما خلاف أم لا ... هذا سهل ويمكن معرفته ببعض الأسئلة ... ولعل «تختخ» يستطيع أن يعرف بسرعة عن طريق عمه المهندس «نبيه».

تختخ: سأحاول.

ودخل «محب» في هذه اللحظة ... وكان واضحًا على وجهه أن المعلومات التي حصل عليها ذات أهمية ... وقد اتَّضح ذلك عندما قال كلمة واحدة: «عاشور»!

ونظر الأصدقاء إليه جميعًا ... ودارت برءوسهم هذه الفكرة ... إن «عاشور» موجود دائمًا في كل ما يتصل بالحادث!

وكان «محب» أسرعهم إلى الحديث: يجب مراقبة «عاشور» جيدًا ... يجب أن نراقبه ٢٤ ساعة في اليوم ... يجب ألا يغيب عن عيوننا مطلقًا.

تختخ: فعلًا ... سنقسم أنفسنا بحيث نراقبه ليلَ نهار ... على «لوزة» و«نوسة» أن تراقباه نهارًا، و«محب» و«عاطف» يراقبانه ليلًا، وليكن معكما «زنجر» فإنني أحسَّ أنه يلعب دورًا مهمًّا في هذا اللغز.

خرجت «نوسة» و«لوزة» لتنفيذ المهمة ... فاتجهت كل واحدة إلى اتجاه مختلف في المعسكر الذي كان العمل فيه يدور بهمة ونشاط. وعثرت «لوزة» على «عاشور» يجلس في ظل إحدى المقطورات وقد وضع أمامه غلاية الشاي التي لا تفارق أي بدوي في الصحراء ... واختفت خلف إحدى المقطورات وجلست تنظر إليه من بعيد ... كان يجلس متكاسلًا، ولكن عينيه كانتا تطوفان بالمعسكر، وكأنه يبحث عن شيء.

وفي المقطورة كان «تختخ» و«محب» و«عاطف» يتحدثون، قال «محب»: لقد قلت ضمن حديثك إنك شاهدت آثارًا في الجانب الآخر من الجبل، بعضها قديم وبعضها حديث ... لقد نسينا أن نفحص هذه النقطة.

قال «تختخ»: نعم ... فعلًا!

محب: ما هو نوع هذه الآثار؟

تختخ: آثار أقدام في الأغلب ... والآثار القديمة لعدد من الأشخاص، والآثار الجديدة لشخص واحد.

محب: في المكان نفسه الذي عثرت فيه على العينات؟

تختخ: نعم ... وأعتقد أنه المكان نفسه الذي عثر فيه «زنجر» على المنديل الملوث بالدم.

محب: هذا يعني في النهاية ... أن «علاء» سقط في هذا المكان!

تختخ: أو يكون قد نُقل إلى هذا المكان بعد إصابته أو موته.

محب: وهذا يثبت أن «عاشور» كاذب تمامًا في روايته عن سقطته بين صخرتين عاليتين ... وأنه لا يعرف المكان ...

قال «عاطف» مهتاجًا: ألم أقل لكم إنه «عاشور» ... إنه القاتل ...

تختخ: صبرًا قليلًا يا «عاطف» فمن أول قواعد الاتهام بالقتل على شخص أن تعثر على القتيل ... فليس هناك عملية قتل بلا قاتل وقتيل.

وصمت لحظات ثم قال: لقد توصلنا إلى استنتاجات محددة ... والمهم الآن أن نجد الأدلة التي تؤيد هذه الاستنتاجات.

في هذه اللحظة دخل المهندس «نبيه» إلى المقطورة وقال لـ «تختخ»: كيف حالك الآن؟

تختخ: الحمد لله أحسن.

نبيه: لقد أمرت بإعداد قافلة سيارات لعودتكم ... فمن الأفضل أن تستكمل علاجك في «القاهرة».

تختخ: ولكن نحن حضرنا لقضاء أسبوع أو عشرة أيام، ولم نتفرج على شيء، ولم نستفد شيئًا.

نبيه: ليس هناك أكثر مما شاهدتم ... الصحراء ... والجبل ... والرجال يعملون ولا شيء آخر ...

تختخ: إننا نريد أن نبقى بضعة أيام أخرى!

نبيه: من الأفضل أن ترحلوا غدًا.

أخذ «تختخ» ينظر إلى المهندس «نبيه» لحظات، ثم قال: إننا نرجو أن تتركنا ثلاثة أيام أخرى فقط.

نبيه: إنني قلق عليك، ومن الأفضل أن تعود.

تختخ: إن بقاءنا سيكون لمصلحة العمل.

نبيه: كيف؟

تختخ: قد نعيد لك الخرائط التي فقدتها!

أخذ المهندس «نبيه» ينظر للأصدقاء مندهشًا، ثم قال: كيف؟ لقد فتشنا الجبل وكنت معنا فلم نعثر على أيِّ أثر للمهندس «علاء» ولا للخرائط!

تختخ: بمنتهى الصراحة لقد عثرنا على أدلة مُشجِّعة يمكن أن تؤديَ إلى معرفة ما حدث بالضبط ... ولكن هذه الأدلة فقدناها في ظروف عجيبة!

نبيه: شيء مدهش ... هل تقومون بحلِّ الألغاز هنا أيضًا؟

تختخ: طبعًا ... وفي أي مكان!

نبيه: وما هي هذه الأدلة؟

وروى «تختخ» لعمه المهندس «نبيه» كلَّ ما حدث ... ومضت ساعة وهو يروي له استنتاجات المغامرين الخمسة ... وعندما خرج المهندس «نبيه» من المقطورة كان قد وافق على بقاء الأصدقاء ... بل وأصبح عنده أمل كبير في استعادة الخرائط التي فقدت ... وزاد احترامه وتقديره للمغامرين الخمسة، وخاصة أنهم لم يطلبوا أية مساعدة سوى سؤالهم عن الخلاف بين «عاشور» و«علاء» وقد أكد لهم أنه لم يكن بينهما أي خلاف.

الجبل ... والقمر ...

لم تحصل «نوسة» و«لوزة» على أيَّة معلومات هامة من مراقبتهما لـ «عاشور»، فقد جلس طول الوقت بجانب المقطورة نائمًا، أو يشرب الشاي. وعندما أوشك المساء أن يهبط عادتا إلى الأصدقاء يائستين ... وكانت حالة «تختخ» قد أصبحت أفضل فاشترك مع الأصدقاء في مناقشة حول ما يمكن عمله، انتهت بالاتفاق على أن ينتظروا نتيجة المراقبة الليلية التي سيقوم بها «محب» و«عاطف» لـ «عاشور».

وهبط الظلام والصديقان يراقبان الدليل ... كان يجلس بين بقية الرجال يسمرون ويتحدثون، ثم قام للنوم في حوالي الساعة الثامنة ... وبقي بقية الرجال يتحدثون ثم قاموا للنوم حوالي التاسعة والنصف ... ولم يبقَ ساهرًا خارج المعسكر إلا «محب» و«عاطف» وبجوارهما «زنجر» ... ومضت الساعات بطيئةً بدون أن يحدث شيء. كان جو الصحراء البارد مفاجأة للصديقين، فانكمشا في مخبئهما قرب المقطورة التي ينام فيها «عاشور»، وقال «عاطف»: إن أسناننا تصطكُّ من البرد ... وأنا جائع فما رأيك؟

رد «محب»: في إمكانك أن تذهب إلى المقطورة، وتعود لنا ببعض الملابس الثقيلة وبطعام ... وسيكون شيئًا عظيمًا إذا أحضرت لنا بعض الشاي.

وأسرع «عاطف» إلى المقطورة، وعندما وصل وجد «نوسة» و«لوزة» قد نامتا.

أما «تختخ» فكان ساهرًا ... ولم يكد يشاهد «عاطف» حتى قال: هل هناك جديد؟

عاطف: الجديد الوحيد هو البرد الشديد ... لقد جئت لأخذ بعض الملابس والطعام والشاي.

تختخ: الحقيقة أن «نوسة» فكَّرت في هذا، ولكنني خشيتُ أن يُعطِّلكما عن المراقبة.

وأخذ «عاطف» و«تختخ» يجهزان الأشياء المطلوبة، ثم انطلق «عاطف» بها، ولكن كانت في انتظاره مفاجأة ... فعندما وصل إلى المكان الذي كان يجلس فيه مع «محب» لم

يجده ... وأخذ «عاطف» ينظر حوله، ولكن لم يكن هناك أثر لـ «محب» ولا لـ «زنجر». وبرغم أن ضوء القمر كان لامعًا، إلا أنه لم يكن في إمكانه أن يتبع آثار تحركهما. وقرر أن يبقى مكانه، فقد يعود «محب» في أيَّة لحظة، فجلس يمضغ ساندوتشًا ويشرب الشاي.

أما «محب» و«زنجر» فقد كانا في تلك الأثناء يتبعان «عاشور». فعندما غادرهما «عاطف» لإحضار الطعام والشاي، ظهر «عاشور» خارجًا من الخيمة في حذر شديد. نظر حوله لحظات، ثم انطلق في طريق الجبل ... ولم يتردد «محب» و«زنجر» في متابعته ... ونظر «محب» إلى ساعته ... كانت الثانية عشرة إلا عشر دقائق. ومشى «عاشور» سريعًا في اتجاه الجبل. وبين لحظة وأخرى كان يتلفت حوله، فكان «محب» ينبطح على الأرض ويسحب «زنجر» معه ... حتى إذا مضى «عاشور» وواصل السير، أسرع «محب» و«زنجر» يتبعانه ... وبعد أن مضى نحو عشر دقائق توقَّف ونظر حوله جيدًا ثم مدَّ يده في ثيابه وأخرج جهازًا صغيرًا يشبه جهاز الراديو «الترانزستور» ووضعه على أذنه. كانت المسافة بين «محب» و«عاشور» نحو عشرين مترًا، فلم يستطع «محب» أن يتبين طبيعة هذا الجهاز. واستبعد أن يكون مجرد راديو ... وإلا فلماذا يبدو «عاشور» حذرًا جدًّا وهو يُخرجه من جيبه؟

توقَّف «عاشور» فترة في مكانه وهو يضع الجهاز قرب وجهه، ثم استدار عائدًا ... وقبع «محب» في مكانه، وأمسك بـ «زنجر» جيدًا حتى لا يتحرك ... ومرَّ «عاشور» قريبًا منهما ثم اتَّجه إلى خيمته ودخلها.

أسرع «محب» عائدًا إلى المكان الذي كان يراقب منه فوجد «عاطف» جالسًا يقضم الساندوتش ويشرب الشاي، وما كاد «عاطف» يراه حتى قال: أين ذهبت؟

محب: نزهة قصيرة خلف صاحبنا.

عاطف: «عاشور»؟

محب: نعم. لقد خرج في نزهة وفي يده شيء يشبه الراديو.

عاطف: يا له من رجل ذي مزاج شاعري.

محب: من المؤكد أنه ليس شاعرًا ... إنه مجرم عريق!

عاطف: ألم أقل لكم؟!

محب: هيا بنا إلى «تختخ» سريعًا ... إنه سيُسَرُّ كثيرًا بهذه المعلومات.

وأسرعا بالعودة ... وقبل أن يدخلا إلى المقطورة، وضعا أمام «زنجر» كميةً هائلة من الطعام.

لم يكد «تختخ» يراهما حتى قال: ماذا وراءكما؟

وروى «محب» لـ «تختخ» ما حدث، ثم قال: وأعتقد أن الجهاز الذي كان مع «عاشور» هو جهاز «الووكي توكي».

تختخ: معقول جدًّا ... فليس من المنطق أن يخرج من المقطورة ليلًا في هذا البرد ليستمع إلى الموسيقى مثلًا!

محب: لا. لقد أدركت أنه جهاز للإرسال والاستماع مثل الذي يستخدمه أمناء الشرطة، جهاز «الووكي توكي».

تختخ: ألم تستنتج شيئًا آخر؟

محب: استنتجت أنه يخرج كلَّ ليلة في منتصف الليل لهذا الغرض.

تختخ: معقول جدًّا، ولكن الأهم من هذا أن «عاشور» ليس وحده في هذه القصة ... إن له أعوانًا، أو هو أحد أعوان مجموعة ما تعمل ضد بعثة المهندسين.

محب: فعلًا ... شيء مثير.

تختخ: مثير للغاية. المهم كيف نستغل هذه المعلومات؟

عاطف: نذهب الآن لإيقاظ المهندس «نبيه» ونطلب منه استجواب «عاشور».

تختخ: وإذا أنكر «عاشور»؟

عاطف: كيف ينكر وجهاز «الووكي توكي» معه؟!

تختخ: لعله يخفيه في مكان سرى لا نستطيع الوصول إليه!

عاطف: إذن ماذا نفعل؟

تختخ: نواصل المراقبة ليلَ نهار.

عاطف: ألا نُخطِر المهندس «نبيه»؟

تختخ: لا، إنه ليس رجل شرطة ولا مغامرات. وسوف يتصرف كما تصورت أنت، سيمسك بخناق «عاشور»، وقد ينكر «عاشور» كل شيء، ونخسر كل ما فعلناه، ويبقى موتُ المهندس «علاء» سرًّا وتضيع الخرائط والمذكرات إلى الأبد.

محب: ألا تتوقع أن يخرج مرة أخرى هذه الليلة؟

تختخ: لا ... تستطيع أن تنام.

وهكذا أوَى الأصدقاء الثلاثة إلى مضاجعهم، وفي رأس كل منهم مجموعة من الأفكار والاستنتاجات تنتظر الغد.

في صباح اليوم التالي اجتمع الأصدقاء بعد الإفطار، وجلسوا يناقشون خططهم المقبلة، واستقر الرأي على إبعاد «عاشور» عن خيمته أطول مدة ممكنة حتى يتمكن الأصدقاء من تفتيشها. وقال «تختخ»: هذه مسألة سهلة، فسوف أطلب من عمي أن يرسله مع فريق

العمل في الجبل طول النهار، وسيذهب «محب» معهم ليراقبه بطريقة خفية، وسنجد نحن طريقة لدخول الخيمة وتفتيشها.

وهكذا أسرع «تختخ» الذي كانت حالته قد تحسَّنت إلى عمه، ورجاه أن يُبعد «عاشور» أطول فترة ممكنة ثم قال: مَن الذي معه في الخيمة يا عمي؟

نبيه: إن معه الدليلين الآخرين، وأحدهما متغيب. وممكن إرسال الثاني في مهمة أيضًا إذا رغبتم.

تختخ: إن هذا يناسبنا جدًّا.

وبعد ربع ساعة من الاتفاق كان «محب» يصحب «عاشور» والبعثة إلى الجبل، وفي رأسه نصيحة «تختخ»: إن «عاشور» يشكُّ فينا، فهو في الأغلب الذي أخذ المنديل والعينات من جيبي فخذ حذرك منه.

ولم تكد البعثة تغادر المعسكر — ثم تتبعها البعثة الثانية وفيها الدليل الآخر — حتى كان «عاطف» و«تختخ» يقفان أمام الخيمة التي يسكن بها الأدلاء. وجلسا على الرمال يتظاهران بلعب «السيجة» وهي لعبة تتم في حفر صغيرة في الرمال وببعض قطع الطوب، وكانا يلتفتان بين لحظة وأخرى، حتى إذا خلا لهما الجو تسللا إلى الخيمة. كان هناك ثلاثة أسِرة صغيرة، وملابس معلقة على جدار الخيمة، وأخذ الصديقان يبحثان في أنحاء الخيمة. لم يكن هناك شيء ... ثم بحثا في الأسرة الثلاثة ولم يعثرا على شيء، واتجهت أصابع «تختخ» المدربة إلى الملابس وأخذ يبحث ... وعثر على قلم رصاص. كان قلمًا أصفر اللون من نوع «كوهينور» ولفت نظر «تختخ» وجود هذا القلم في جيب أحد الأدلاء فتركه في مكانه بعد أن ألقى عليه نظرة فاحصة.

وبعد عشر دقائق بالضبط، أطلَّ وجه «عاطف» على حذر من الخيمة ونظر حوله، لم يكن هناك أحد. وسرعان ما خرج الصديقان، وقال «عاطف» وهما يبتعدان: إنه رجل شديد الحذر، فهو يحمل جهاز «الووكي توكي» معه.

تختخ: ليس هذا بمستبعد، فملابس الأعراب واسعة فضفاضة يمكن إخفاء هذا الجهاز الصغير بها. ولكن هل تعرف أننا قد نكون عثرنا على أثر هام؟

عاطف: ما هو؟

تختخ: القلم الرصاص ... إن هذا النوع من الأقلام لا يستخدمه إلا المهندسون فهو غالي الثمن نوعًا.

عاطف: هل تقصد أن «عاشور» استولى على القلم من المهندس «علاء» بعد موته؟

تختخ: ربما.

عاطف: إنه نذل ويجب ...

تختخ: على مهلك، فنحن ما زلنا نقيم استنتاجات، والأدلة ما زالت قليلة أو ضعيفة، ولكن المهم أننا شبه متأكدين من أن «عاشور» يعرف مكان المهندس «علاء».

تختخ: إن ما أخشاه ألا يعود «عاشور».

عاطف: كيف؟

تختخ: إن له أعوانًا كما قلنا ... وقد يحس بالخطر فيهرب في الجبل ويذهب إلى أعوانه ولا يعود!

عاطف: ستصبح هذه مصيبة!

تختخ: ربما، وربما تكون مفيدة، فلا تنسَ أن عندنا أذكى كلب في تتبع الأثر والرائحة، وربما دلَّنا على مكانه.

عاطف: وربما حدث العكس ... ألا يعود «محب».

ووقف «تختخ» في مكانه. كيف نسيَ تلك الليلة التي سقط فيها وكاد يُقتل؟ أليس من المحتمل أنه كان فخًّا من «عاشور» أو أعوانه؟ أليس من الممكن أن يُعِدَّ فخًّا آخر لـ «محب»؟

ولكنه استردَّ هدوءه عندما تذكر أنهم في وَضَحِ النهار، وأن «محب» ليس وحده ... وهكذا سارا حتى وصلا إلى حيث كانت «نوسة» و«لوزة» تجلسان مع «زنجر» في الظل.

قالت «لوزة» متلهفة: هل عثرتم على شيء؟

عاطف: عثرنا على قلم رصاص من النوع الثمين.

لوزة: دعك من الهزر يا «عاطف» ... فماذا وجدتم؟

عاطف: وأؤكد لك أننا عثرنا على قلم رصاص ولكنه ...

والتفتت «لوزة» تستغيث بـ «تختخ» من هزر «عاطف» ... ولكن «تختخ» قال لها: صحيح لم نعثر إلا على قلم رصاص ... ولكن من نوع «كوهينور» ...

نوسة: وماذا يعني هذا؟

تختخ: في رأيي أنه يخص المهندس «علاء»، وهذا يعني أن «عاشور» أخذه منه بعد موته. وهذا يعني أيضًا أنه يعرف مكانه، ويستطيع الوصول إليه.

نوسة: إنه قلم رصاص ثمين حقًّا ... فهو دليل عظيم ...

أمضى الأصدقاء بقية اليوم في انتظار عودة البعثة وهم يتناقشون، وقد انقسموا فريقين؛ فريق يؤكد أن «عاشور» سيعود، وفريق يؤكد أنه لن يعود.

وعندما أوشكت الشمس على المغيب، ظهرت أول بعثة. ولم تكن البعثة التي بها «محب» ثم بعد نصف ساعة ظهرت البعثة الثانية ... ظهر أحد الرجال أوَّلًا ممن يحملون

العينات. ثم ظهر المهندس «سعد» ثم ظهر «محب» … وتنفس «تختخ» الصُّعَداء … وفي النهاية ظهر «عاشور».

وقالت «نوسة»: لقد عاد …

تختخ: إنه في منتهى الجرأة!

عاطف: معنى هذا أنَّ لنا جولةً أخرى معه هذه الليلة؟

تختخ: إنها في الأغلب جولة النهاية … المهم كيف تكون النهاية؟ فإنني أتوقع أن تكون هناك مفاجأة غير معقولة!

لوزة: ما هي؟

تختخ: لو قلت لك … كيف تصبح مفاجأة؟!

المطاردة

استعدَّ الأصدقاء لتلك الليلة استعدادًا مثيرًا، ووضعوا خطتهم على أساس ثلاث مجموعات مراقبة؛ المجموعة الأولى تراقب «عاشور»، المجموعة الثانية تراقب المجموعة الأولى، المجموعة الثالثة تراقب المجموعة الثانية ... وقال «محب» معلقًا: إنها سلسلة مُحْكَمة من مجموعات المراقبة.

قال «تختخ»: إنها ليست للمراقبة فقط ... ولكن للمراقبة والتغطية والتأمين.

لوزة: وما هي الخطة؟

تختخ: الخطة، تقوم المجموعة الأولى — وهي أهم مجموعة — المكوَّنة من «عاطف» و«محب» بمراقبة «عاشور»، ونحن نتوقع أن يتحرك في منتصف الليل كالمعتاد. فإذا خرج «عاشور» إلى الجبل تابعته هذه المجموعة. ثم تتحرك المجموعة الثانية المكونة من «نوسة» و«زنجر» خلف المجموعة الثانية ويكون بينها وبين المجموعة الأولى نحو عشرة أمتار فقط. والمجموعة الثالثة مكونة من «لوزة» ومني، وسنتبع المجموعة الثانية على بعد عشرة أمتار أيضًا. والمقصود من تقارب المجموعات أن نستطيع في الوقت المناسب الانقضاض على «عاشور»، أو الاصطدام به وبمَن معه إذا لزم الأمر.

نوسة: وما هو موقف المهندس «نبيه»، وبقية رجال بعثة المهندسين؟

تختخ: سوف أقابله فورًا. وسأعود لكم بعد دقائق بالاتفاق الذي سيتم بيني وبينه. فسنحتاج إلى بعض الأشياء معنا.

وتحرَّك «تختخ» سريعًا إلى حيث كان المهندس «نبيه» في المقطورة يدرس ويدوِّن مذكرات عمَّا عاد به الرجال من الجبل.

وعندما دخل «تختخ» رفع المهندس «نبيه» رأسه ونظر إليه قائلًا: ماذا وراءك؟ اقترب «تختخ» حتى وقف أمام المكتب الذي يعمل عليه عمُّه، ومدَّ يده فأمسك بقلم رَصاص كان في مكتبه ونظر إليه، ثم قال: «كوهينور»!

نبيه: نعم. نحن نستخدم هذا القلم لامتيازه.

تختخ: وهل كان مع المهندس «علاء» قلم من النوع نفسه؟

نبيه: بالتأكيد.

تختخ: وهل هناك احتمال أن يحصل أحد الأدلاء على قلم من النوع نفسه؟

نبيه: للأسف، إن الأدلاء الثلاثة لا يعرفون القراءة والكتابة.

تختخ: إذن فقد عثرت على دليل هام، ولكن ليس هذا وقت المناقشة في الأدلة وسواها، فنحن مقبلون على مغامرة هامة الليلة ... أو هذا ما أرجوه!

نبيه: هل تتوقع أن نعثر على جثة المهندس «علاء» الليلة والمذكرات؟

تختخ: أتوقع مفاجأة ... بل سلسلة من المفاجآت ... والمهم الآن هل عندكم وسيلة لاتصال بعضكم ببعض في أثناء البحث في الجبل؟

نبيه: نعم. عندي هنا جهاز لاسلكي. وعندنا جهازان من «الووكي توكي» يمكن الحديث بينهما، أو الحديث معي على جهاز اللاسلكي.

تختخ: ومع مَن أجهزة «الووكي توكي»؟

نبيه: إنهما عندي هنا!

تختخ: أرجو أن تتأكد.

وقام المهندس «نبيه» ففتح دولابًا، ونظر داخله، ثم قال: إنهما هنا!

تختخ: ذلك شيء مثير للغاية. هل كان مع المهندس «علاء» جهازه «ووكي توكي» عند رحلته في الجبل؟

نبيه: لا ... فقد كنت مسافرًا، وكان الدولاب مغلقًا. وعلى كل حال، لم يكن من المتوقع أن يبتعد كثيرًا حتى يستخدم جهازًا من هذا النوع!

تختخ: وهل يجيد «عاشور» استخدام هذه الأجهزة؟

نبيه: لا مطلقًا ... إنها تُصرف للمهندسين فقط ...

تختخ: ذلك شيء مثير للغاية!

نبيه: إنك تكرر هذه الجملة ... فما هي الحكاية؟

تختخ: سنحتاج الليلة إلى جهازي «الووكي توكي» وأرجو أن تشرح لي طريقة الاستخدام. ونرجو أن تبقى ساهرًا بجوار جهاز اللاسلكي، ويكون معك بعض مَن تثق فيهم من رجالك.

ابتسم «نبيه» قائلًا: هذا شيء مثير للغاية!

وضحك «تختخ» لأول مرة منذ وصوله إلى «أبو طرطور»، ثم قال: الليلة سوف نثبت لك قيمة المغامرين الخمسة!

نبيه: إنك تبدو متأكدًا ...

تختخ: لست متأكدًا تمامًا الليلة ... ولكن إذا لم يحدث الليلة ما نرجو، فسوف يحدث في ليلة أخرى.

نبيه: سأنفِّذ ما تطلبونه لأرى ما هي النتائج.

وقام المهندس «نبيه» بإخراج جهازي «الووكي توكي» من الدولاب، وشرح لـ «تختخ» طريقة الاستعمال ... فوضع «تختخ» الجهازين في حقيبة صغيرة استعارها من المهندس «نبيه» ... ثم خرج مسرعًا بعد أن اتَّفق معه على طول الموجة المستعملة.

كان الظلام قد هبط تمامًا على الصحراء ... وبدت الأضواء تلمع في المعسكر ... وعندما وصل «تختخ» إلى الأصدقاء وجدهم ينتظرونه على أحرٍّ من الجمرِ.

وسرعان ما كان «تختخ» منهمكًا في شرح استخدام جهاز «الووكي توكي» لـ «محب» بعد أن تَقرَّر أن يحملَ واحدًا، وقال «تختخ»: حتى لا نضل الطريق في الجبل، سأكون أنا وأنت على اتصال طول الوقت ... وسأتصل أنا بالمهندس «نبيه» إذا احتجنا إليه. أما أنتِ يا «نوسة» فسأكون قريبًا منك، بحيث إذا احتاج «محب» و«عاطف» لـ «زنجر» ... فسأتمكن من اللحاق بكِ لإخطارك.

ثم التفت إلى «محب» قائلًا: إن كلمة السر هي «ميج»، فقد تختلط موجاتنا مع موجة الآخرين، فنعرف مَن المتحدث، وقد اتفقتُ مع عمي على ذلك ...

محب: هل أخرج أنا و«عاطف» الآن؟

تختخ: بعد أن يتكاثف الظلام، وبرغم أنني أتوقع أن يكون موعد خروج «عاشور» هو الموعد السابق نفسه، أي منتصف الليل، إلَّا أننا يجب أن نكون على حذر. وخذا معكما بعض الأطعمة وبطارية وشايًا. وقطعة حبل تكفي لشدِّ وثاق شخص!

محب: هل تتوقع أن نصطدمَ بـ «عاشور»؟

تختخ: بـ «عاشور» أو بغيره ... يجب أن نكون على استعداد.

وجلس الأصدقاء ساعةً أخرى يتحدثون، ثم خرج «عاطف» و«محب» أوَّلًا ... وتبعتهما «نوسة» ومعها «زنجر»، وبعدها خرج «تختخ» و«لوزة» وكان رأس «تختخ» ما يزال يؤلمه، ولكنه كان متحمسًا للمغامرة الليلية.

كان ضوء القمر ساطعًا، وحافظت المجموعات الثلاث على المسافات بينهم، ثم قبعوا خلف بعض الصخور في انتظار ظهور «عاشور» ... ومضت ساعة أخرى ثم ثالثة، ثم بدأت الأنوار تنطفئ في المعسكر واحدة تلو الأخرى، وقال «عاطف» هامسًا: تحدث إلى «تختخ»، فإنني أخشى أن تكون قد نسيت استخدام «الووكي توكي»!

ابتسم «محب» ثم ضغط على الزر، وأبقى أصبعه معلقًا عليه وقال: «ميج» ثلاثة يتحدث، حوِّل.

وسمع صوت «تختخ» يأتي: «ميج» اثنين ... هل حدث شيء ما؟ حوِّل.

محب: يريد «عاطف» أن يتأكد من أنني لست غبيًّا! حوِّل.

تختخ: شيء ظريف. لقد أثرت أعصابي بدون مبرر. حوِّل.

وفي تمام الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق ظهر شبح «عاشور» خارجًا من الخيمة وبدا طويلًا ومهولًا في ضوء القمر الذي ألقى ظلَّه الطويل على الأرض، فبدا كشبحٍ أسطوري. وقف «عاشور» لحظات ينظر حوله ثم بدأ يخطو إلى الأمام وقال «محب» في «الووكي توكي»: «ميج» ظهر الزبون! حوِّل.

رد «تختخ»: «ميج» ... «ميج»، لا تدعه يغيب عن نظرك، وحافظ على المسافة بينه وبينك. حوِّل.

ومشي «عاشور» مسرعًا، ووصل إلى قاعدة الجبل، ثم بدأ يتسلَّق. وكانت نقط المراقبة الثلاث تتحرك خلفه ... وفي الساعة الثانية عشرة تمامًا أخرج الجهاز الصغير من جيبه ثم بدأ يتحدث، وفتح «محب» — وهو أقربُ مراقبٍ منه — جهازه وحاول أن يلتقط شيئًا، ولكن المدهش أنه وجد صوتًا عميقًا يقول: «ميج» واحد ينادي. وفهم «محب» أنه المهندس «نبيه»، ومضى «نبيه» يقول: استمعت على جهاز اللاسلكي إلى شخص يتحدث ... إنه يطلب ترك المعسكر واللحاق بالمجموعة. حوِّل!

قال «محب» في الجهاز: «ميج»، «ميج» يتحدث، إنه في الغالب «عاشور»، سأُبلغ «تختخ» بذلك. حوِّل.

وتحدث «محب» إلى «تختخ»: «ميج» اثنين ... «ميج» اثنين يتحدث ... يتحدث «ميج» واحد ويقول إن شخصًا يطلب ترك المعسكر واللحاق بالمجموعة ... أعتقد أنه «عاشور». حوِّل.

رد «تختخ» في الجهاز: «ميج» ثلاثة يتحدث ... إنه «عاشور» فعلًا كما توقعت ... إنه يريد الفرار ... تقدَّم خلفه وحافظ على المسافة. حوِّل.

ثم تحدث «تختخ» إلى عمه المهندس «نبيه»: «ميج» ثلاثة يتحدث ... هل تسمعني؟ حوِّل.

رد المهندس «نبيه»: «ميج» واحد يتحدث ... أسمعك! حوِّل.

تختخ: ليأتِ خلفنا عشرة من الرجال بسرعة ... وليكن قائدهم المهندس «سعد» وابقَ أنت بجوار الجهاز ... حوِّل.

كان «عاشور» يجري تقريبًا على الجبل. والبعثات الثلاثة تجري خلفه ... وكان «تختخ» يحس بآلام رأسه تتزايد، ولكنه تحامل على نفسه ومضى ... وكانت مهمة مجموعات المراقبة صعبة على سطح الجبل، لهذا كانوا يسيرون زاحفين أغلب الوقت، وبخاصة لأن «عاشور» كان يتلفَّت حوله بين فترة وأخرى.

انتهى الجبل ... ووصل «عاشور» إلى المكان نفسه غربيَّ الجبل حيث وجد «تختخ» عينات الفوسفات، وفتح «تختخ» جهاز «الووكي توكي»، وبدأ الحديث إلى «محب»: «ميج» اثنين يتحدث ... هل تسمعني؟ ... حوِّل.

وردَّ «محب»: «ميج» واحد يتحدث ... إني أسمعك ... حوِّل.

تختخ: إنه وصل إلى المكان نفسه الذي عثرت فيه على العينات ... لقد بدأ الجزء الخطير من الرحلة ... خذ حذرك ... حوِّل.

ونزل «عاشور» سفح الجبل ونزل خلفه «محب» و«عاطف» ... وفجأة سقط «عاطف» على الجبل، وسقطت حوله مجموعة من الصخور ... كانت لحظة هائلة عرَّضتْ خطتهم جميعًا للفشل ... ورأوا على ضوء القمر «عاشور» وهو يتوقف مكانه وينظر إلى فوق ...

وفتح «محب» جهازه قائلًا: «ميج» ثلاثة يتحدث، لقد سقط «عاطف». وسقطت بعض الصخور. إني أخشى أن يرانا «عاشور» برغم أننا انبطحنا ... حوِّل.

ورد «تختخ»: «ميج» اثنين يتحدث ... انبطح مكانك تمامًا ولا تتحرك ... إنه يشتبه منذ وجد معي العينات والمنديل. وأي حركة قد تؤكد شبهته ... حوِّل.

ومضت لحظات مشحونة بالتوتر برغم مُضيِّ «عاشور» في طريقه، وسمع «تختخ» صوت المهندس «نبيه»: «ميج» واحد يتحدث ... الرجال جاهزون الآن. أين أنتم؟ حوِّل.

تختخ: نحن في نقطة غرب الجبل ... قرب المنطقة التي عثرتم عليَّ فيها مصابًا ... أسرعوا. حوِّل.

وأحسَّ «تختخ» أنه يريد أن يتقدَّم أكثر ... وكان ما زال فوق الجبل، فتقدَّم مُسرعًا حتى لحق بـ «نوسة» و«زنجر»، وقال لـ «نوسة»: صديقتي العزيزة. شكرًا لك، سأترك معك «لوزة» هنا ... ستجدون الرجال قادمين الآن من ناحية الشرق، إنهم رجال المهندس «نبيه». فدلوهم على المكان الذي سأنزل منه الآن. وأعطوهم هذا الجهاز؛ لأني سأنضم إلى «محب» و«عاطف» وسآخذ معي «زنجر».

وجلست الفتاتان على سطح الجبل، وأسرع «تختخ» متناسيًا جرحه نازلًا ومعه «زنجر» ... لم يكن معه جهاز الاتصال، ولكنه كان يرى «محب» و«عاطف» على بُعد عشرين مترًا تقريبًا، وبسرعة انضم إليهما.

فجأة على بعد نحو كيلومترين في قلب الصحراء، لمع ضوءٌ في الظلام ... ضوء واحد واضح كمصباح كهربائي بعيد ... ووقف الأصدقاء الثلاثة على حين أخذ «زنجر» يهمهم في ضيق وكأنه يريد أن ينطلق.

وأمسك «تختخ» بجهاز «الووكي توكي» وتحدث مع المهندس «نبيه»: «ميج» ثلاثة يتحدث ... هل تسمعني؟ ... حوِّل.

نبيه: «ميج» واحد ... ارفع صوتك ... الصوت ضعيف جدًّا. حوِّل.

تختخ: لسنا وحدنا في الصحراء ... حوِّل.

نبيه: لا أسمع ... ماذا تقصد؟

تختخ رافعًا صوته: لسنا وحدنا في الصحراء ... ضوء بعيد ...

نبيه: غير معقول ... لعله انعكاس ضوء القمر!

تختخ: إنني أعرف الفرق بين الانعكاس والضوء الحقيقي ... إن الانعكاس يتم في اتجاه واحد ... ولكن هذا الضوء متفرق الاتجاه.

نبيه: شيء في غاية الغرابة!

تختخ: ولكن الأغرب ستعرفه بعد ساعة أو ساعات. لقد تركت جهاز «الووكي توكي» مع «نوسة» على سطح الجبل ... وجِّه رجالك إلى غرب الجبل، وقد تركت تعليمات مع «نوسة» ... وإلى اللقاء، حوِّل.

المفاجأة

كان واضحًا أنَّ «عاشور» متجه نحو الضوء، فقال «تختخ»: حتى لا نثير أيَّ انتباه سننتظر قليلًا حتى يصل الرجال ... إننا نعرف هدفه ... ومن السهل متابعته!

قال «عاطف»: إنني لا أكاد أفهم شيئًا من هذا كله. ما هي الحكاية بالضبط؟

تختخ: الحكاية واضحة الآن.

عاطف: اشرح لنا إذن ولا تدعنا في الظلام!

قال «تختخ» ضاحكًا: أيُّ ظلام ... إننا في ضوء القمر ...

ومضت فترة وشبح «عاشور» يبتعد متجهًا إلى الضوء حتى اختفى، فقال «محب»: أخشى ألَّا يكون متجهًا إلى حيث نظن ونفقد أثره!

تختخ: تأكد أنه متجه إلى الضوء كالفراشة!

وبعد لحظات قال «تختخ»: اتصل بـ «ميج» اثنين لعل الرجال وصلوا. وفتح «محب» «الووكي توكي» ولكن لم يكن هناك رد ... ومضت فترة أخرى، ثم صفَّر الجهاز فرفعه إلى قرب أذنه وسمع المهندس «سعد» يقول: «ميج» اثنين يتحدث ... نحن في الطريق إليكم ... حوِّل.

رد «محب»: «ميج» ثلاثة يتحدث ... أسرعوا ... قد يختفي الرجل!

وجلس الأصدقاء صامتين ... كان ضوء القمر يدهن الصحراء بلون الفضة، والجبال صامتة وموحشة. وريح باردة تهبُّ من الغرب. وكان الضوء الباهر في وسط الصحراء واضحًا.

وقال «محب»: مغامرة ليست على البال.

عاطف: ومن نوع جديد.

محب: وستنتهي نهاية مفاجئة جدًّا.

سمع الأصدقاء صوت عدة أقدام تقترب، فعرفوا أن الرجال قد وصلوا. وفعلًا ظهرت «نوسة» و«لوزة» وبعدهما المهندس «سعد»، ثم بقية الرجال … وأشار «تختخ» ناحية الضوء وقال: هل ترى هذا الضوء البعيد؟

سعد: أراه بوضوح.

تختخ: «عاشور» هناك.

سعد: ماذا يفعل؟ إنني لا أفهم شيئًا!

تختخ: هذا ما سنعرفه … سنتقدَّم عنه أوَّلًا، وسنسير في صف واحد مستطيل؛ بحيث نبلغكم التعليمات واحدًا وراء واحد. وأسرعوا في اتجاه الضوء.

وبعد نحو نصف ساعة كانوا على بعد أمتار منه … وتبيَّنوا سيارتَي «جيب» وخيمة، كان بعض الأشخاص يطوونها على عجل، فقال «تختخ»: إنهم على ما يبدو أربعة … فنحن أكثر منهم … وهم يحاولون الرحيل … وسنقوم بعملية سريعة … أن يتجه «عاطف» و«محب» إلى السيارتين بهدوء شديد، ثم يقومان بعمل سهل للمغامرين الخمسة!

محب: ما هو؟

تختخ: تفريغ إطارات السيارتين!

محب: وبعدها؟

تختخ: وبعدها ستكون المفاجأة كاملة عندما نهجم عليهم … هيا يا «عاطف»! وأنت يا «محب»!

وتسلل الصديقان زاحفَيْن، على حين اختفى بقية الرجال والمغامرون خلف صخرة. واقترب «محب» من إحدى السيارتين وسمع صوت رجل يقول: ماذا نفعل بالرجل؟

قال آخر: سنتركه، فلا وقت عندنا للتخلُّص منه … وقد شددت وثاقه جيدًا!

فكَّر «محب»: لقد خافوا من «عاشور» وسيتركونه … وهذا جزاء الخونة!

وبهدوء أخذ يُفرغ الإطار حتى لا يُحدِث صوتًا، لكن «عاطف» لم يكن حذرًا كـ «محب» … فقد جذب غطاء «البلف» ووضع أصبعه على مسار النفخ بشدة، فأطلقت العجلة صوتًا عاليًا جذب انتباه الموجودين. وسرعان ما كانوا يحيطون بـ «عاطف».

شاهد «تختخ» ما حدث فقال: إنها فرصتنا، لقد جمعهم كلَّهم في مكان واحد … هيا!

وانطلق الرجال العشرة والمغامرون و«زنجر» وانقضُّوا على الرجال … كانوا خمسة وسادسهم «عاشور» ودارت معركة. كان عنصر المفاجأة في جانب الأصدقاء، فسرعان ما استطاعوا السيطرة على الموقف … عدا شخص واحد استطاع الفِرار جريًا في الصحراء …

أسرع «تختخ» إلى الخيمة يبحث عن الرجل الذي جاء من أجله ... ولكن لم يجده، وسقط قلبُه في قدمَيه ... لقد كذب استنتاجه ... والمفاجأة التي كان يُعدُّها لم تكن إلا مجرد وهم ...

وأخذ يجري ويبحث في السيارتين، ولكنه لم يجده ... وفجأة وجد «زنجر» يقفز على قدميه نابحًا وهو يجذبه من ثيابه، فأسرع خلفه ... وبعيدًا خلف صخرة، عثر على الرجل الذي كان يبحث عنه مُكمَّمًا ومُوثَّقًا!

وأمسك «تختخ» بجهاز «الووكي توكي»، وبدأ يتحدث إلى المهندس «نبيه»: هنا «تختخ» ... (لم يقل: «ميج» فلم يعد هناك سر) ... هنا «تختخ» كل شيء على ما يرام ... وقد قبضنا عليهم ...

جاء صوت «نبيه» مدهوشًا: مَن هم؟!

تختخ: الرجال الذين تآمروا على «أبو طرطور» وحاولوا إبعادكم عن الجبل!

نبيه: أريد تفاصيل أكثر ... هل عثرتم على الخرائط والمذكرات؟

تختخ: انتظرنا ... وسترى ما هو أهم!

قُرْب الفجر كان المغامرون الخمسة و«زنجر» والرجال العشرة والمهندس «سعد» ومعهم الأسرى الأربعة و«عاشور» وشخص آخر يسيرون في اتجاه مقطورة المهندس «نبيه»، الذي كان يقف على العتبة يتحرَّقُ شوقًا لمعرفة ما حدث ...

وفجأة وعلى ضوء المعسكر ونور الفجر، شاهد ما لم يُصدِّقه ... الرجل الذي قيل إنه مات وسقط من فوق الجبل ... المهندس «علاء» يسير بين الرجال ... واندفع «نبيه» إليه وصاح: «علاء» ... «علاء»!

وأسرع «علاء» إليه، وقال «نبيه» وهو لا يصدق: أنت حي؟

علاء: وهل قال أحد إني ميت؟

نبيه: «عاشور» قال إنك سقطت من أعلى الجبل بين صخرتين وبحثنا عنك طويلًا بدون جدوى.

علاء: إنه رجل حقير ... لقد خاننا ...

وعندما دخلوا جميعًا إلى المقطورة، مضى «علاء» يُكمل قصَّته: استطاع «عاشور» أن يُفاجئني بضربة على رأسي وأنا أسير أمامه على الجبل، وتحمَّلت الضربة، ولكنه أخرج مسدسًا من جيبه وأمرني أن أسير إلى حيث يريد ... واضطُررتُ أن أسير معه بعد أن

ربطت رأسي بالمنديل، ثم وجدت نفسي في معسكر لأشخاص أجانب، حضروا للحصول على الخرائط والمذكرات لغرض ما سنعرفه الآن.

ونظر «نبيه» إلى «تختخ» وإلى المغامرين في إعجاب، وقال: لقد خدمتم بلدَكم خدمةً لا تُنسى ... أعدتم هذا المهندس النابه حيًّا ... هل أعدتم المذكرات أيضًا؟

ومدَّ المهندس «سعد» يده بالمذكرات والخرائط!

قال «نبيه»: ولكن كيف حدث كل هذا؟

تختخ: منديل ملوَّث بالدم كان البداية ... إن الرجل الذي يسقط على الصخور لا يمكن أن يترك خلفه منديلًا ملوَّثًا بالدم عليه آثار بصمات ... من هذه البداية عرَفتُ أنه في الأغلب ما زال حيًّا، ثم عندما عثرنا على العينات عند سفح الجبل زاد تأكُّدي ... ولكني لم أقل لك حتى لا تتعلق بأمل قد لا يتحقق.

نبيه: وبعدها؟

تختخ: حصرنا شبهتنا في «عاشور» ... وراقبناه حتى أوصلَنا إلى معسكر الأعداء ...

وأخذ الرجال جميعًا يُقبِّلون المغامرين الخمسة، ولكن «تختخ» فجأة وضع يده على رأسه وقال: رأسي يؤلمني، أريد أن أنام ...

وبينما هو يتجه — وهو محاط بنظرات الإعجاب — إلى الخارج، التفت إلى المهندس «نبيه» قائلًا: ولا تنسوا إعطاء «زنجر» كميةً مضاعفةً من اللحم، إنه أوَّل من دلَّنا على حقيقة ما يحدث في «أبو طرطور».


هنداوي